

المنتحرة
قصص
كرم صابر

" مَشْرَحَة "

قصَص

كرم صابر

العنوان: المشرحة

المؤلف: كرم صابر

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٢٠٥٤٤

الترقيم الدولى: ٩٧٨-٩٧٧-٣١٣-٤٩٠-٧

الطبعة الأولى: أكتوبر ٢٠١٣
الغلاف: محمود حافظ
مركز المحروسة
قطعة رقم ٧٣٩٩ش ٢٨ من ش ٩ – المقطم – القاهرة
ت،ف : ٢٥٠٧٥٩١٧-٠٢-٠٠٢

www.mahrousaeg.com
e-mail: info@mahrousaeg.com
e-mail: mahrousacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران

كرم صابر: أديب مصرى نشأ فى مدينة الوراق وقت أن كانت قرية يعمل أهلها بالزراعة قبل أن يدمجها الزحف العمرانى بالقاهرة ، وبدأ العمل بالمحاماة عام ١٩٨٩ ؛ نشر العديد من الأعمال السردية منها المتهم وأين الله ورائحة الأنوثة وعشق الحياة وفؤاد المدينة وطائر النسيان ومريم العذراء وكلاب السكك.

طبعة إليكترونية : ٢٠١٥

إلى أخى درويش

وقعتْ هذه الأحداث فى برِّ مصر

فى الفترة التى تلت

المذبحة

" نِفْط "

لا مكان آمن فى هذا الحي، المخبرون يتعقبون خطواته، والنساء تحولن إلى غانيات، حتى المرأة التى تزوجها تخرج من المنزل إلى السوق دون إذنه.

يرفض أهلها دائمًا آراءه، ويصفونه بالمتزمت ويرفضون إجبارها على الصلاة أو ارتداء النقاب، قال لنفسه وهو يسير وسط الشارع : " لا أدرى، كيف أتحاشى نظرات رواد المقهى إلى أردافها وهى تلبس العباية الضيقة وتسير أمامهم كل يوم إلى السوق ! "

لولا صاحب المصنع الذي يعمل فيه، لتحولت حياته إلى كابوس، وأضحى كالمؤمن الذي نزل نار جهنم دون إرادته.

عندما قابله منذ أيام وحكى عن وجيعته، خفَّف الرجل جراحه ووعده بحل مشكلته فى أقرب وقت، قائلاً: " الجميع يرفض وصايا الدين الحنيف ويروِّج للمدنية التى ستجعل رب العالمين يخفس الأرض بمن عليها ".

يعمل فى شركته مبرمج كمبيوتر، يدرب الموظفين الذين يعملون فى فروع مؤسساته على تدوين الحسابات والاستفادة من التطور لزيادة أرباحه وتدقيق الفواتير أمام شركائه وجهات المراقبة.

يعطيه مرتبًا مجزيًا، ويعامله كابنه، ورغم أنه متزوج من ثلاث نساء، لكنه لا يترك فرض الله، ويطالب العمال دائمًا بالعدل خاصة لمن يتزوج أكثر من امرأة.

استقبله ليلة الأمس فى مكتبه، وطلب منه الاستعداد للسفر إلى المملكة ، وقال : " ستدير فرع الشركة هناك، وسأوفر لك شقة مستقلة، لتأخذ زوجتك وابنك وتهرب من الجحيم ".

لم تندهش زوجته لسماع الخبر، لكنها سألته فى بلاهة: " هو فيه هناك سوق وبياعين بطاطا يا خوى؟! "

تجاهلها، وطلب منها تجهيز حاجاتها خلال يومين، وأمرها بغلق الأبواب والشبابيك وملء الحقائب بملابسها الخفيفة، وحين سألته عن الطعام وأدوات الطبخ قائلة: " هل يتم نقلها

معنا إلى هذه البلاد؟ "، لم يرد عليها لأن صاحب الشركة أكد أن "منامته" لا ينقصها سوى حضورهم.

عندما وصل إلى المدينة كادت روحه تفارقه من فرط البهجة، استلم عمله وذهب آخر اليوم إلى شقته كأنه حقق كل أحلامه، وعاش كالفراشة محبًا للحياة، وسعد بوجوده وسط إخوانه، وتفانى فى العمل كأمانة مربوطة حول عنقه.

أخيرًا، تحققت أمنيته وأصبح يحيا بين عالم يموج وينضح بشعائر الدين الحنيف.

قال لنفسه بعد عدة شهور : " أفضل ما فى المدينة أن الشركات تغلق أبوابها، والأسواق تتوقف حينما يؤذن الجامع، فالصلاة فرض على الجميع، ولا يجوز العمل فى أثناء قيامها ".

شعر الرجل أخيرًا بأن الخير مازال موجودًا .

ورغم حياته السعيدة التى قضاها بين العمل والمسجد وصحبة الإخوة فى الأمسيات ، يسمعون القرآن ، لكن زوجته وابنه أصيبا بوعكة صحية كادت تودى بحياتهما وتحولا إلى دمى لا ينطقان ولا يحسان برحيق النور الإلهى الذى يمده بالسلام.

لم يكن يراهما إلا آخر الليل، ومع ذلك حينما يعود لا يحدثانه ويظلان صامتين كالحائط، رغم أن الشقة مملوءة بوسائل الرفاهية من دش وثلاجة وتكييف وأجهزة رياضية، لكن المرأة التى تعودت على رائحة الحوارى لم تتمكن من التأقلم مع الحياة فى البلد التى لا تعرف بائعى الترمس والفول الحراتى، ومع ذلك تشرفت أرضها بحضرة الرسول.

عندما عاد أحد الأيام ووجدها نائمة غير قادرة على الرد على أسئلته، أخذها إلى الدكتور فى مستشفى الملك، فأكد أنها مصابة بصدمة عصبية، ولا يمكن أن تتحدث مرة أخرى إلا إذا شربت من مياه النيل!!

قال لها وهى راقدة على سرير المستشفى: " كيف ستتركينى وتعودى إلى أهلك؟ أليس لى احتياجات؟ ألست رجلا وأحتاج لامرأة تخدمنى وترافقنى وتحقق رغباتى وطلباتى؟ "

لم ترد عليه، وظلت تتوجع وتئنُّ ، ورغم أن الدكتور أكد خلو جسدها من الأمراض، لكن بكاءها الصامت حول حياته لجحيم.

فى النهاية رضخ لصمتها ، وحجز لها تذكرة على طيران المملكة لتعود إلى أهلها مع ابنهما الوحيد.

لم يكن يرغب فى استكمال حياته بهذا الشكل، وانتهز فرصة وجود صاحب الشركة فى المملكة، وتحدث معه على ما جرى لحياته الخاصة، فضحك الرجل فى سخرية قائلا: " إن الله حلل الزواج من أربعة ".

ورشح له إحدى العاملات التي يمتلك أحد أقاربها نصف أسهم الشركة، قائلاً فى نهاية حواره: " خديجة " ملتزمة ومن جماعة الأمير وسوف تبهج حياتك ".

خلال هذه الليلة استكمل مراسم الزواج، وعاد بخديجة إلى شقته التى حولتها إلى جنة.

تركت المرأة ملابس زوجته فى الدولاب الكبير ورصت أطباقها فى المطبخ بطريقة باهرة، واستعادت الحياة بروحها المتدفقة فى الحجرات الواسعة.

الشيء الغريب أن " خديجة " ارتدت قمصان النوم التى كانت ترتديها زوجته، وطلبت منه أن ينكحها كأنها المرأة الأولى التى عرفها فى حياته.

عشق هذه المرأة التى حولت حياته إلى نعيم، ولم ينسَ زوجته وابنه فأرسل لهما كل شهر نفقتهما ولم يعد فى ضميره حقد تجاههما.

وبعد ليلة طويلة وعند عودته من العمل شاهد ابن الأمير يخرج من المنزل الذى تقطن فيه شقته، لم يهتم بوجوده، ولكن حين وضع المفتاح فى باب الشقة ووجد " خديجة " فى حجرة النوم بقميصها الذهبى، ورائحة السرير وجسدها يغرقان فى عرق شخص غريب، نفر من نفسه وحاول الخروج من خيالته المريضة.

طرد الشيطان من عقله، ودخل الحمام، هاربًا من الوسواس الخناس، لكن الملابس الداخلية لأحد الرجال التى لا تخصه كانت معلقة على الباب فى تحدٍّ وقوة لتدل على ارتكابها المعصية.

عندما واجهها بما شاهده اتصلت بصاحب الشركة الذى طلب منه أن يترك الشقة ويطلقها فى سلام، قائلاً فى التليفون بأدبٍ وهدوءٍ يُحسد عليهما:" زى مادخلت بالمعروف اطلع بالمعروف، واكفى على الخبر ماجور، " خديجة " طاهرة ومن بيت الأمير شريكى ".

واستكمل قائلا: " يا سيدى، النسوان على أفَه من يشيل، والمأذون اللى هيطلقها هيجوزك من " محاسن " التونسية، وهى داعية فى مسجد معاوية ولن تفرط فى عرضك أبدًا ".

ورغم أنه لم يَرْتَحْ لنبرةِ صوته، لكنه ذهب فى نفس الليلة ونفذ فى تشفٍّ مراسم الطلاق والزواج، وعاد مع " محاسن " إلى شقتها التى أحس بمجرد دخوله كأنه وسط قصر مسحور.

فى اليوم الأخير له فى المملكة كاد الجنون يفتك خلايا عقله، فالمرأة التى تسمى زوجته تفتح شقتها أمام الشيخات والفتيات ليل نهار، وتدبس فى ملابسهم الأحراز التى تقيهم شر الطريق وخيانة الأزواج.

لم تكن تهتم بأمره إلا يوم أجازتها، تأخذ الدش الساخن بعد نومها الطويل، وتلبس الملابس المفتوحة المبهرة، وتجلس بجواره تدخن الشيشة وتطلب منه أن يخدمها كعبد، كانت بها نشوة وأنوثة لم يعهدهما فى حياته، لكنها كانت كالملكة ولم تنظر إليه أبدًا كرجلها.

وحينما طلب منها أن تجهز العشاء بدلا من الهندية التى ترافقها، شخرت كالفواحش، وطلبت منه أن ينام ليلته خارج الشقة.

لملم ملابسه وركب الباص غير عالمٍ بمصيره، ونزل فى حوش الملك المُفَّدى وجلس ساعات طويلة على مقهى النخيل، وفى لحظة مباغتة نادى على سائق تاكسى وركب بجواره لتوصيله إلى المطار؛ قطع التذكرة ، وعاد إلى وطنه.

خلال طيرانه فى السماء، قرر ترك الشركة التى لا يعرف حجم فروعها ولا تمويلها ولا جنسية أصحابها ، قائلا لنفسه: " سأفتح ورشة صغيرة بمنزلنا أو أعيد فتح دكان أبى ".

حين نزل إلى أرض المطار وحمل حقائبه وعبر صالة الجمرك، تفاجأ بالضباط فى انتظاره، قائلين بثقة: " أهلا بعودتك يا شيخ ".

حاول أن يستفهم عن وجودهم، فمال عليه أحدهم قائلا: " صاحب الشركة بلغ عن نشاطك الدينى وعضويتك فى خلية محاسن التونسية يا مصرى ".

"مصالح "

كانت أشجار الجامعة مختلفة عن أقرانها التى تقبع على شواطئ الترع فى قريته البعيدة.

هنا الألوان مختلفة، الفتيات المتبرجات بشعورهن الملونة المتدفقة على ظهورهن، جعلته يفقد عقله منذ دخوله مبنى الكلية، لكن الشيخ الذى أوصاه بحمل الأمانة جعل طموحه فى الاقتراب منهن أشبه بالحلم المستحيل.

جلست فاطمة بجواره فى المدرج وطلبت منه كشكول المحاضرات، لم ينظر إلى وجهها، وسلمها الكشكول وقام مدفوعًا بخجله خارج الأسوار.

ذهب إلى المدينة الجامعية وتناول غداءه، ودخل حجرته صامتًا، فتح الكاسيت على إذاعة القرآن الكريم، وظل طوال الليل يقرأ فى المصحف، لدرجة أنه أعاد قراءة سورة آل عمران ومريم والبقرة عده مرات حتى نام والمصحف مفتوح على وجهه.

أيقظه زملاؤه قبل الفجر ليتوضأ ويصلى معهم جماعة، وبعدها نزل إلى ملعب المدينة ليتدرب مع الشباب .

لم يكن يهتم بتدريباتهم الثقيلة، واكتفى بالانضمام لفريق الكرة، لم تشغله آراؤهم فى اجتماعاتهم الطويلة حول الجهاد بسبب العصبية والتخوين الذى وصل إلى حد الكفر، لم يندمج معهم لأنه يؤمن بأن دين الله لا يجوز فرضه بالقوة ولكن يجب الدعوة إليه بالحب والصلاح.

فى هذا الصباح صعد إلى حجرته وفتح الأجندة وكتب أشعارًا عن نور الله ورحاب جناته.

كان سعيدًا لوجودها فى حياته، إذ يكفى أن تقول فى وجهه: " خطك جميل أوى يا محمد ".

حلق ذقنه وشاربه ووضع معطر الريحان خلف أذنه، ونزل مسرعًا ليلحق بالمحاضرة الأولى.

نظر وسط آلاف الطلبة ليشم رائحتها ، كانت هناك تجلس فى نفس الدرج وتحجز مكانًا خاليًا بجوارها.

اقترب من هالتها، ونظر من تحت حجابها إلى عينيها وقال فى نشوة: " السلام عليكم " فردت كبلبلة: " وعليكم السلام، عامل إيه يا أخ محمد؟ "

جلس بجوارها صامتًا، فسلمته الكشكول، قائلة: " الخط الجميل دليل على الروح المنمقة "، واستكملت: " نمت كويس إمبارح؟ ".

بعد المحاضرة أخذته إلى الكافتيريا وأصرت على أن تشرب معه الشاى، تحدث عن أسرته وقريته وطموحاته وطلبت منه المشاركة فى أسرة الجماعة التى تترأَّسها.

سعد بثقتها، وقال : " الإخوان ينظمون أنشطة كثيرة بالمدينة ويمكننا تنظيم الرحلات وإلقاء محاضرات الدعوة وسط الطلاب ".

خلال عدة شهور توطدت علاقتهما، وطلب منها الزواج بناءً على توصية الأخ الكبير فى شعبة المدينة.

وافقت على الفور، بشرط أن يزور أهلها فى منزلهم القريب من الجامعة برفقة أسرته.

عندما عاد إلى القرية لم ينم ليلته، وسهر حتى حلول الصباح يجود القرآن، ويكتب فى أجندته الأشعار والأبيات التى تتغنى فى أولياء الله الصالحين ونور الصحابة.

لمحت أمه نور عيونه وجبهته المبتهجه فى الصباح، فسألته مندهشة:" مالك يا محمد؟".

قال بتجاهل: "ده قلق الامتحانات يا أمَه، متخافيش".

ردت بثقة كونها المرأة الوحيدة التى تعرفه : " قلبك مفطور يا ضناى ".

فى المساء وبعد أن صلى العشاء فى الجامع الرئيسى، اختلى بأبيه وطلب منه أن يرافقه إلى منزل فاطمة فى المدينة.

حينما اطمأن الوالد أن ذلك لن يؤثر فى مستقبله ومذاكرته وافق على الفور، وبعد ظهور النتيجة وتفوقه كالعادة، نصحه أحد الإخوة باستخراج كارنيه النقابة والعمل محاميًا بمكتب أحد الإخوة المشهورين.

رحب المحامى الكبير بوجوده، وأعطاه مرتبًا كبيرًا، وبعد مرور عدة شهور دعاه ليستأجر شقة بالحى القريب كى يتزوج ويستكمل نصف دينه.

أقرضه مبلغًا كبيرًا، ليشترى الجهاز ويستكمل مراسم العُرس، ونَعم " محمد " بصحبة " فاطمة " أميرة الحب والملاك الطاهر.

بعد زواجه أقنعها بضرورة المكوث بالمنزل وترك أنشطة الجماعة والتفرغ لبيتها، لكن الحياة الهنيئة لا تدوم، ولا تمشى السفن دائمًا وسط الرياح فى طريقها المعهود، فمكتب الأخ المحامى الذى يعمل عنده تحول فجاءة إلى خلية نحل، وتعرف خلال هذا الوقت على مسئولين وفطاحل الشيوخ.

اثناء زيارة رجل مهم ملتحي للمكتب تذكر خالِه الذى انتمى للإخوان منذ عصور طويلة ومات بالسجن، كانت القرية تُكِنُّ له الحب التقدير وعاش بينهم كملاك، لم يرفع صوته فى وجه أحد وظل محبوبًا من الجميع وفتح بيته لكل عابر سبيل، وعطف على الأرامل واليتامى وعلَّم الجميع تجويد القرآن وسنة النبِّى.

فى هذا اليوم أحس بالفخر ،لكن شىء واحد جعله يتخوف ويتردد قليلاً، رغم أنه أصبح محل ثقة الجميع، شىء جعله يخشى المرور حتى النهاية فى هذا الطريق.

فالمعلومات التى عرفها بحكم وجوده بأكبر مكتب للمحاماة تؤكد العلاقات الوثيقة والاتفاقات والمصالح المتبادلة بين الأجهزة وصاحب المكتب.

وفوجئ ببعض الزبائن يتناقشون معهم كأصدقاء،ويدعونه للاجتماع ، فقرر الهروب فى هذا اليوم بزوجته إلى البلدة والبدء من جديد، وحين زاره الضابط المسئول عن المحافظة وقال بثقة: " أنت ثروة كبيرة يا محمد "، قرر غلق المكتب.

اختفى فى البلدة عدة شهور يراجع حياته ، وقرر فى النهاية العمل مثل باقى الخلق والاستمتاع بالحياة مع أسرته، وعندما زاره بعض الإخوة لضمه إلى إحدى الخلايا ، رفض قائلا: " أعطونى أجازة أعيد فيها ترتيب أفكارى ".

وحين هدده أحدهم بأن المعركة الفاصلة قد حان وقتها، ولا يوجد وقت لأحد للمراجعة، قرر طردهم قائلاً بنبرة واضحة: " لا يوجد لأحد فضلٌ علىَّ واعتبرونى منذ اللحظة خارجًا عنكم".

صباح تلك الليلة، كانت " فاطمة " تجلس مع أمه وسط باحة المنزل وتجهز معها الإفطار، نظر إليهما فى حب وودعهما ذاهبًا إلى المحكمة لتسجيل عقود ارضهم.

ركب فى صندوق السيارة المتهالكة التى تقله إلى المدينة، وشاهد بعض الوجوه الغريبة تقف على الباب وتنظر ناحيته بغضب .

لم يهتم بما بوجودهم او بما يجرى حوله، ولم يعبأ بأصوات المتظاهرين التى ملأت شوارع المدينة الصغيرة.

نزل من السيارة أمام باب المحكمة وفوجئ بالجموع الهادرة تدخل المبنى وتطلق الرصاص وترمى بالقنابل فى كل مكان.

هرب مسرعًا مختفيًا بجوار أحد الجدران، لكنه شاهد أحد القادة الذى حاول إعادته إلى التنظيم يسير وسط الخراب، برفقة أحد الضباط ويشير إلى جسده فى غدر فتلقى الرصاصة التى اخترقت ضلوعه بأسى.

رغم الألم الذى سرى بجسده، لكنه تحسس الحائط وخرج من المحكمة التى تم حرقها، وركب وراء أحد الشباب على الموتوسيكل وذهب إلى المستشفى .

استقبله الدكتور الذى يعرفه قائلا: " رسالتنا وصلت الآن يا أخ " محمد" "، فقال فى صمت : " لن أعود إلى حظيرتكم أبدًا !! "

" غُربة "

ولد يتيمًا وسط عائلة ينظر الفلاحون إليهم كأنهم خونة، لكن أمه التى تحملت الشقاء من أجله، قررت تعليمه وعزله عن أقرانه فى البِركة، فى كل صباح تخرج إلى الحقول لتملأ بردتها بالحشائش وتعود لتطعم جاموستهم الوحيدة، وتحلبها فى الصباح والمساء، وتأخذه معها إلى حوارى المدينة القريبة لتبيع اللبن والجبن للأفندية.

لم يستخرجوا له شهادة ميلاد، فأقرانه فى بركة العرب يولدون ويعيشون كالأغراب فى البلدة التى لا تعرف إلا حياة الفلاحين والموظفين والصنايعية.

ظل سنواتٍ يسمع طوال النهار الحكايات عن بطولات أعمامه وأخواله الذين يخرجون فى أثناء الليل ويقطعون الطريق، ويتشفَّى فيهم أعداؤهم من الفلاحين والمرشدين الذين يتعقبون حركة كل شخص فى البركة الصغيرة.

حينما يعود بذاكرته إلى الماضى يتعجب من طريقة عيشهم وخضوعهم لأوامر "سويلم " الرأس الكبير فى البركة، كلمته كالسيف ولا يستطيع أحد مخالفة أحكامه.

علاقاته المتشعبة مع قسم الشرطة وكبار الفلاحين جعلت لأسرته ونسائه الثلاث نفس قوته وهيبته.

بنى بيته بشكل مختلف عن أعشاشهم الضيقة، وترك باحته الواسعة خالية لتستقبل شيوخ العربان؛ وينظم كل عدة شهور المجالس العرفية لحل المشاكل بين أبناء البِركة والفلاحين أو الأغراب.

يتهمهم الجميع باللصوصية، فلا يمكن أن يُسرق منزل أو جاموسة أو معزة فى البر كله، إلا ويأتى البوليس والبلطجية إلى بيت " سويلم "، يفاوضونه ويسلمونه المبالغ التى أخذوها من المسروقين كى يعيد أتباعه حاجتهم المخطوفة.

لم تكن أمه ترغب فى ارتباطه بأحد من أبناء القبيلة، فاستخرجت له شهادة ميلاد وأرسلته إلى المدرسة.

تندَّر الجميع على مريلته وطريقة كلامه، خاصة الناظر ومدرس الألعاب وأبناء الفلاحين الذين يجاورونه فى دِكَّة الفصل، لكنه لم يُبالِ لسخريتهم واستمر يستمع للدروس، ويتفانى فى المذاكرة، حتى إن الجميع اعتبره من الطلبة المتفوقين.

عند عودته إلى عشتهم التى تلاصق الحجرات المدفونة فى البِركة يسمع سخرية النساء والأطفال والرجال على ابن " زليخة " التى تأمل أن يصبح مهندسًا مثل أبناء الفلاحين والأفندية.

تحملت أمه تهكُّم الجميع بسبب طريقة عيشها وطموحاتها الغريبة لوحيدها، ومع ذلك استمرت تكافح وتصرف ما تكسبه على الكتب والمدرسين حتى وصل " سليم " إلى الصف السادس.

وحين أعيا كواحل أمِّه التعب والورم، ولم تتمكن من الذهاب للحقول ولمِّ الحشائش من على شطوط الترع والمصارف لتطعم الجاموسة التى تفتح البيت، بركت فى المنزل ولم تتمكن من حلبها أو توزيع لبنها، فاضطر " سليم " إلى ترك المدرسة كى يتمكن هو وأمه من العيش.

ورغم ذلك رفض الخروج مع الصبية إلى الشوارع ليلا ليجمع الزبالة أو يسرق الشقق، و نزل بسطل اللبن إلى عمائر الأفندية ،وسعد بمهمته الجديدة ونسى كتب المدرسة وشر فتيان النجع.

بدأت حياته الجديدة تتفتح أمامه ، تعرف على المقاهى وحياة البندر، وشاهد النساء الفاتنات فى الشقق، وتمنى أن يحيا مثلهم بعيدًا عن مشاكل البركة.

استمر أعمامه وأخواله يتشاجرون ويتصارعون كالجراد على حصاد الشر، و حرصت أمه على عدم زيارات اخواله وعماته ، ورغم جزنها لتركه الدراسة، لكن كانت سعيدة لكونه بات مختلفًا عن أقرانه الذين "ينئبون" الزرائب ويقطعون الطريق ويفتشون المارة ويسرقون محافظهم وموبايلاتهم.

يعطيها سليم كل يوم ثمن اللبن، ويتركها تدبر إطعامه مع الجاموسة .

سعدت بذهابه إلى المسجد والصلاة مثل الفلاحين، ولم تكن تحس بالمهانة بأن شكله ليس كباقى صبية النجع.

عندما بدأت لحيته فى الظهور بوجهه، تركها بأمر الشيخ " حميدة " الذى يؤمهم فى المسجد كسُنَّة عن النبى الكريم، وحينما عرف بأنه يجيد القراءة والكتابة تفانى الرجل ليحفظ "سليم " المصحف كاملا، ولم يتركه إلا بعد أن جود أجزاءه الثلاثين.

انبهر الجميع بحضوره، فكيف لأعرابى لا يعرف أهله وعشيرته إلا السرقة والسطو أن يصبح شيخًا، ويعمل مثل باقى الخلق ويأكل من عرق جبينه؟!

توطدت علاقاته بالشيوخ وأصبحت جلستهم الدائمة بالمسجد بعد صلاة العشاء فرضًا محببًا إلى نفسه، يتناقش فى أمور الدين ومواقف الصحابة، وعرف الفرق بين الحياة والموت والنساء البكر والداعرات، وسر الشيخ " حميدة " بهدوء كل خطوة وهمسة فى حياته العجيبة.

عند عودته إحدى الليالى وجد الجاموسة فطسانة، فصرخت أمه وعددت وكادت تفقد روحها، لكن " حميدة "حضر إلى البركة وطلب منه أن يعمل فى مزرعته ويتقاضى ما كان يكسبه كى يظل بيتهم مفتوحًا.

ساعده الرجل كثيرًا، واستأجر له حجرة بالقرية، وزوجه بإحدى الأخوات التى لم يرَ وجهها الشارع، كانت زوجته جميلة وطيبة وتحول سليم إلى مواطن صالح طوع، يخرج من المزرعة إلى الجامع ومنه إلى عشة أمه ثم يذهب إلى حجرته ليشارك زوجته البهجة وينام خالى البال.

ظلت حياته الجديدة كما هى خلال السنوات العشر التى تلت زواجه، لدرجة أن الجميع لقبه بالشيخ " سليم ".

وفى ليلة سوداء أحاط البوليس بالمسجد وقبضوا على الشيخ " حميدة " وجماعته، وقد أرعبه وجود الرشاشات والبنادق الآلية المدفونة تحت بلاط ميضة الجامع.

يومها سأل أحد إخوانه عن سبب السلاح، فقال بأسى:" كنا نعد العدة لتطبيق شرع الله فى بلاد النجاسة!! "

لولا ذهاب أمه إلى " سويلم "، ليشفع له ويسامحه علي خروجه علي عادات القبيلة لكان أمن الدولة قد أخفاه وراء الشمس.

فى هذه الليلة عاد إلى حجرته ولم يجد زوجته التى هربت بعد معرفتها خبر القبض على أعضاء التنظيم، فعاد إلى عشة أمه، واستدعاه " سويلم "، وأمره بتطليق الزوجة الهاربة التى تأخذ التعليمات من " حميدة ".

لم تهتم أمه بتردده، وقالت كأمر: " سوف نزوجك ابنة خالك الصغيرة ".

فى اليوم الذى طلق فيه الزوجة الفلاحة تزوج الغجرية بنفس الحجرة وعلى نفس السرير، ولم يترك " سويلم " أمر عمله للظروف، فطلب منه أن يركب توكتوكه ويقتسم معه مبلغ الوردية، وأصر فى الوقت نفسه على أن يحلق ذقنه ولا يصلى مرة أخرى .

فى هذه الأيام تشاجر أحد الشيوخ وهو يخطب الجمعة مع المصلين الذين رفضوا حديثة عن الجنود البواسل كمجرمين، واضطر إمام المسجد إلى النزول من على المنبر والاختباء بأحد الأركان بعد إطلاق الرصاص بالجامع، وتفرق المصلون مملوئين رعبًا، فى مشهد لم يكن أحد يتصور حدوثه.

لم يبكِ " سليم " على موت الإمام وبعض أنصار " حميدة "، لكنه تمزق من داخله لتجرؤ البلطجية على إشعال النار بأبواب وسجاد المسجد ومنع إقامة الصلاة.

حينما مرَّ فى اليوم التالى ووجد شبابيك المسجد وأبوابه المحترقة كاد قلبه ينفطر حزنًا، لكن الجنود الذين يحرسون الشمع الأحمر لفظوه بأعينهم وسبوه فغادر صامتًا.

عندما طافت المظاهرات شوارع البلدة وشاهد إخوانه يقولون ببكاء: " احنا القتلة والأغراب " دمعت عيونه وانزوى بجوار الحائط ، ورغم تحذيرات " سويلم " بعدم الانضمام إليهم لكنه لم يتمكن من منع نفسه، فسار معهم مرددًا وراءهم: " ياللى بتسأل إيه القصة... قتلوا إخوتنا وحرقوا الجثة " و " ثورة دية ... ولا انقلاب ... انقلاب انقلاب ".

فى هذا اليوم سار معهم مسافات طويلة حتى وصل الي المدينة، وعندما طالته رصاصات العسكر فى أقدامه، ولم يجد أحدًا من إخوانه يرفع جثته، قبض البوليس عليه ورموه بتخشيبة المديرية أيامًا طويلة، وحينما عرف الضباط بحكايته، أحضروا الطبيب لينظف جرحه ويطهره، ثم لفَّقوا له تهمة إحراز سلاح.

" رحلة "

حينما تزوج " عزيز " فى منزل والده الترزى وطالبه بإيجار الشقة التى بناها من عرقه وكده، حزن من قسوته لأنه يعرف الظروف الصعبة التى تمر بها البلاد وحولته إلى عاطل.

لكن الوالد أصر وسط الجلسة التى جمعت الأهل والجيران على استلام الإيجار كل أول شهر حتى لا يضطر إلى تأجيرها للأغراب، كى يتمكن من الصرف على علاج زوجته.

رحلة " والد عزيز " طويلة؛ فهو أول ترزى عرفه الحى، راكم القرش على القرش حتى تمكن من شراء قطعة الأرض الصغيرة بجوار الكنيسة الوحيدة بالبلدة، ومع مرور الزمن تمكن من بناء الدور الأول.

عندما خرج البنا والنجار من البيت الجديد أحضر المبيض والكهربائى ليستكملا التشطيبات ويعدا المنزل للإقامة، واتفق مع صاحب الشقة التى يستأجرها على تركها مقابل ألف جنيه وانتقل إلى منزله كى يحقق حلمه الذى راوده منذ حضوره كطفل مع والده من أقاصى الصعيد.

أخيرًا، أصبح للرجل بيت مستقل يغلق بوابته بنفسه كل ليلة، ويصعد إلى السطوح يفرش الحصيرة، ويطلب من زوجته أن تجهز الأكل ليتناول العشاء مع أولاده وسط براح السماء.

مع مرور الزمن قرر بناء ثلاثة أدوار ليسكن أبناؤه الثلاثة معه ويظل حارسًا عليهم مع " أم عزيز " فى شقته بالدور الأرضى، ولأنه كان سعيدًا بجدران حوائط منزله فقد ترك دكانه الذى كان يقع بالشارع الرئيسى وفتح محله الجديد بمنزله وكتب على يافطته " ترزى المحبة ".

لم يتوانَ الرجل طوال رحلة عمله فى إبداع أجمل البنطلونات الشلستون والقمصان القطنية ليرتديها الشباب فخورين بعضلاتهم وصدورهم القوية.

جلس أيامًا وأيامًا يبدع القصات الجديدة للبلوزات التى أبهرت فتيات الحى وجعلتهن زبائن دائمين عند " المقدس "، وعندما أصيب بالشلل ولم يتمكن من العمل انقطع الدخل، واضطر لتأجير الدكان، لكن إيجاره لم يكفِ لسد رمقه وشراء علاج السكر " لتريزا ".

فى هذا اليوم دق باب شقق أولاده الثلاثة وطلب منهم النزول إلى شقته بالدور الأرضى، وطلب منهم بغضب أن يدفعوا كل أول شهر مبلغًا كإيجار للشقة حتى يتمكن من إعالة نفسه، يومها تنحنح " عزيز " قائلا: " وعشان إيه كل ده، متعيش مع أى واحد فينا أنت وماما ".

لم يلقَ اقتراحه قبول باقى الإخوة، فزوجاتهم لا يطقن وجود الام بالدور الأرضى، فكيف يتحملن سماع أنفاسها إذا نامت فى شققهن؟ فى هذا اليوم جمع " أبو عزيز " إخوته وجيرانه وشرح لهم الحكاية، فأقروا جميعًا بأحقيته فى الإيجار اعترافًا بالأبوة.

منذ ذلك اليوم بدأت المشاكل بينهم، وسمع الشارع تفاصيل حياتهم وتأسوا لسماع رحلة شقى " المقدس "الذي كان يبدءها بالعتاب ثم يسرد كيف تفتق ذهنه ليدبر مبلغ الجمعية مع " تريزا " لشراء الأرض وبناء المنزل طوبة طوبة، ويحكى تفاصيل بناء كل دور وطريقة تدبيره المبالغ الكبيرة لتوضيب السباكة والنجارة والكهرباء والبلاط.

وفى النهاية رضخ الأبناء لدفع مبلغ يقل عن الإيجار الشهرى، حتى يتلاشوا الفضيحة التى ذاع صيتها بشارع المسابك.

لكن الابن الأكبر " عزيز " الذى لا يعمل بشكل مستمر لم يتمكن من سداد المبلغ الشهرى، وأصبح مجرد دخوله وخروجه إلى المنزل إيذانا بسماع الألحان والحكايات والتعديد من " تريزا " على جحود الأبناء الذين لا يستحقون رحلة العمر الضائع.

حين جاء خبر مقتله أمام الكنيسة بسبب مشاجرة نشبت بين الملتحين وعائلات المسيحيين واضطراره للوقوف مع بعض الشباب لحماية بيت الرب، وأصيب بطلق نارى أودى بحياته، وكاد الشارع يغرق فى الحزن ولم يجرؤ أحد على النظر فى عين الآخر.

فى تلك الليلة نسى " أبو عزيز " والأم " تريزا " كل الحكايات عن رحلتهما، ولبست أراوحهما قوة لم نعرفها قبل وفاة ابنهما العاطل.

بعد دفنه فى مدافن المسيحيين، أخرج " أبو عزيز " " محمد الحلاق " من الدكان وأعاد فتح " ترزى المحبة " حتى يتمكن من الصرف على أحفاده الذين يجلس معهم كل ليلة يحكى ببهجة عن أيام السيد المسيح الذى كان يؤم الدنيا ويحكم العالم بحكمته وطُهره، لم ينسَ الرجل أن يُذكِّرهم بأنه كان الترزى المفضل لشيوخ الأزهر القلائل الذين عاشوا فى البلدة قبل تحويلها إلى مدينة.

" عملاء "

لا يمكن أن أنسى هذا الوجه الملائكى فى سجن الاستئناف، رافقنى كأب فى الزنزانة وأدى صوته الهادئ واتزان عقله ورجاحة لسانه إلى نيل ثقتى كرفيق، مما دفعنى للتساؤل:" كيف تبنى هذا القلب البرئ هذا الفكر العنيف؟!"

اسمه " وحيد " وعيونه الناعمة جذبت روحى ودفعتنى لاحترامه، يتركنى ليصلى أو يستغرق فى قراءة المصحف أو أحد كتب التفاسير، كانت أسرته الغنية ترسل الطعام والملابس النظيفة إلى السجن فتخفف عنا طعم الخبز الأسود، رغم اتهامه فى أحد تنظيمات العنف المسلح لكنه كان رقيقًا حالمًا، واندهش كثيرا من عدم انضمامى إلى إحدى الخلايا الدينية.

فسَّر كل شيء بالحب، وحلم بالجنة التى سيجبر سكان الأرض على العيش وسط نعيمها.

ورغم مناقشتنا الطويلة، لكنى لم أفهم كيف يمكن الوصول لنعيم الآخرة بتفجير دماء البشر على الإسفلت؟!

اتهمني بالرومانسية والسطحية، فكيف يمكن نيل الأمانى وتغيير الدنيا دون دفع الثمن؟ كان يؤكد أننا لن نصل إلى حياة الدين الحق، إلا بالمزيد من قتل الكافرين الذين يعبثون ويسرقون ويغشون وينهبون ويشربون الخمر والحشيش، غير عابئين برب الدنيا والآخرة.

تلاقت أفكارنا بعض الأحيان، لكن حين تأتى سيرة الجبر وتقسيم الناس حسب معتقداتهم، أنسحب تحت بطانيتى وأقول له: " تصبح على خير يا وحيد ".

افتخر بالعمليات التى قاموا بها فى معبد الكرنك وضد السياح وفي المدن الساحلية التى تستقبل العراة على الشواطئ.

بعد مرور عشرين عاما ووصول الإسلاميين إلى الحكم أتذكر هذا الشاب الوسيم، وأتساءل: أين هو الآن فى زهو الدولة الجديدة؟.

لو قابلته لسألته عن الفارق بين الحكومات التى تدير حياتنا والجنة التى ضحى من أجلها وتحمل الكثير من إخوانه القضبان ورصاص العسكر وسيوف البلطجية فى المعارك الخاسرة؟

عندما أعلنت السلطة حركة المحافظين الجدد ووجدت وجهه اللامع ضمن القائمة، وسمعته فى التلفزيون يفتخر بصعود المبشرين والأطهار إلى سُدَّة الحكم، وتوعد الكفرة الذين يخربون البلاد بالحساب العسير.

نظرت فى وجهه الذى مازال يحمل ملامحه وتعجبت من لقبه الجديد، لم يكن اسمه "وحيد "، ولم يكن أحد أفراد التنظيم المسلح.

كان مدفوعا من الأجهزة ليخترق خلايا المتطرفين، عرفت ذلك فى مداخلة لأحد الخبراء الذي أكد أن معظم المحافظين والوزراء هم عملاء للأجهزة داخل التنظيمات الدينية، وأشار إلى أسماء عدد كبير وكان منهم صديقى المخادع.

رغم تأكيد هويته، لكننى لا أصدق حتى الآن انتماءه إلى الأجهزة؛ إذ كيف يمكن أن يستمروا فى تربيته وتعليمه خلال عشرات السنين كى يتبوأ فى النهاية المقعد الذى يدير ويحكم وينهب ثروات الناس بصرف النظر عن عقيدتهم؟!

" حمَّام "

تعرفت عليه فى أروقة المحافظة، يعمل مهندسًا بوحدة الإسكان التى تجاور مكتبى، ويقع تحت يديه الكثير من الملفات التى يمكن أن يأكل من ورائها الشهد.

كان وجوده وسط طاقم الموظفين أشبه بالوردة التى تنبت وسط مستنقع الشوك.

يأتى فى مواعيده منتصبًا فى مشيته وواضحًا فى نبرات صوته وحذرًا فى حواراته وأحاديثه، يخرج إلى المأموريات بهمة ونشاط، وينفذ قرارات الهدم والإزالة ولا يخشى إلا الرب العالى فى الملكوت.

هكذا عرفنا الأستاذ " نجيب " كزاهد فى الدنيا.

يقوم بالتدريس لبعض الطلبة فى منزله ليستكمل دخله الضئيل ويتمكن من شراء حاجات أسرته، لا يدخِّن ولا يشرب الشاى، وتكفيه ساندويتشات زوجته التى يحضرها معه من منزله، يعمل بعض الأحيان فى كتابة المذكرات لبعض مكاتب المحاماة التى تعرف إخلاصه وتفوقه العلمى فى الكلية التى حفظ قوانينها وحصل على الدكتوراه، ومع ذلك لم يتم تعيينه بالجامعة.

تأقلم معنا رغم أنه من طينة أخرى خلاف كل الموظفين الذين عملوا بأروقة المحافظة ، وحينما يحتاج رئيس الوحدة أن يظهر شرفه أمام رؤسائه يكلف الأستاذ " نجيب " بتنفيذ تأشيرته القانونية السليمة.

نعرف جميعًا أن مأمورياته المكلف بها لا يوجد فيها رشاوي، ويطلب منه رئيس الوحدة تطبيق قرارات الإزالة على المنازل التى يملك أصحابها الفتات أو الذين اشتكوا المحافظة بسبب المعايير المزدوجة لبحر القوانين التى يعرف خباياها الموظفون الجهابذة.

حينما زرته فى منزله انبهرت من الأثاث البسيط، ونظرت للحوائط المملوءة بصور "البابا " وبعض أفراد عائلته، نادى على ابنه الوحيد " بيشوى " ليسلم على عمو، ودخلت زوجته بصينية الشاى مرحبة بصديقه كأخ عزيز على أسرتها.

طلبت منه الدخول للحمام، فتنحنح محرجا، وسحبنى من يدى ودخل بى دورة المياه الضيقة وطلب منى لبس طاقية جلدية أشبه بالحلة قبل جلوسى على القعدة، استفسرت منه عن سبب ذلك، فأشار إلى نقاط المياه التي تخر من سقف جاره على أرضية حمامه.

بعد انتهاء العملية خلعت الطاقية ووضعتها على الحوض فى مكانها، وغسلت يدى وخرجت، قائلا له: " لماذا لا تطلب من الجار أن يُصلح المواسير؟ رد بشهامة: " ظروفه صعبة وكلما طلبت منه اشتكى من قلة الحيلة وطالبنى بتحمل ظروفه الصعبة.

لم يبالى باندهاشى لصبره علي الرائحة القذرة التى تملأ حمامه ، فأشار إلى طبق الفاكهة لأتناول المزيد، قائلا:" الطُّهر فى نفوسنا يا صديقى ".

عندما تغيرت احوال الحي جاءه أحد المحامين المعروفين وطلب منه التوقف عن تحرير محاضر ضد تجار الأراضى الملتحين، حرصًا على حياة ابنه وزوجته.

الشىء الغريب أن محامى الملتحي الذى ارتزق من دموع الأرامل وعاشر زوجات المعتقلين ليخفف وحدتهن، تحول بين يوم وليلة إلى نجم فى الأمسيات التلفزيونية وظهر كمعلم وهو يرشد الناس إلى طريق الصلاح.

ورغم ذلك فهم " نجيب " رسالته الواضحة، ونقلها فى اليوم نفسه إلى المحافظ الذى هدَّأ من روعه واضطر لنقله للأرشيف حرصًا على حياته.

ولأنه لا يعرف إلا الطريق القويم، رفض تغيير البيانات بالملفات أو وضع عقود مزورة لتفخيخ القضايا، واضطر رئيس الأرشيف لتحويله إلى التحقيق لدرء الفتنة بمبنى المحافظة الممتلئ بالملتحين والذى كان مجرد وجوده يثير شهية القتل عندهم.

تندَّر الجميع عليه وهو يسير بالممرات الطويلة داخل المبنى، قائلين:" احمد ربنا أننا لم نفرض عليك الجزية يا مقدس "، ورغم ذلك كان يضحك مبتهجا ويرد عليهم فى رضا غريب، قائلا: " حتى لو فعلتوها فلن تجبرونى على تغيير دينى!! ".

" **شحاتة** "

لا مكان لموضع قدم فى القرية، الحوارى اكتظَّت عن آخرها بالهادرين، والمصلين انطلقوا بعد صلاة المغرب إلى منزل الرجل الذى لم يُسْمع له صوت طوال حياته، راغبين فى قتله.

الجميع خرج ملبيًا دعوة الشيوخ الذين علقوا صورهم الكفرة على الجدران، منددين بوجودهم وتبشيرهم بالدين الجديد.

الوجوه العابسة خرجت وهى تحمل بيديها السِّنج والشُّوم، متجهين إلى المنزل الذى يحرض صاحبه على الشرك بالله، ويدَّعى كما ذكر الكثيرون بأن الوحى الإلهى نزل خطأ على " محمد "، وأن الإمام " على " هو نبى الله المختار.

انبرى آخرون مؤكدين أن هؤلاء المدعين يدَّعون أن الإمام الحسين الذى حارب معاوية كان بطلا مغوارًا، ويحتفلون نكاية فى أهل السنة بليلة استشهاده كأنه ملهم لحياتهم الضائعة.

طبقًا للروايات التى تناقلها المحيطون بالمنزل فإن الشيعة ليلة الاحتفال بالحسين يمرمغون أنفسهم فى التراب، لانهم خانو الإمام يوم خروجه لتحريرهم من قبضة الخليفة الغادر.

نعم أكد شيوخ الجوامع أن هؤلاء الكفرة يمارسون طقوسًا غريبة فيكفى أن تشاهد أحدهم يوم عاشوراء وهو يلطم خدوده وينزل الأذى بنفسه وسط عويل أقرانه ليصيبك الفزع والخوف.

انبرى بعض المتجمعين مؤكدين أن الله حرم الصلاة معهم لأنهم يتبادلون الزوجات ويسبون السيدة عائشة زوجة الرسول ، وهمس آخر : "إن نساءهم وأموالهم حلال على أهل السنة، وأبناءهم عبيد فى ممالك الخلافة "، واستكمل آخر : " نعم هم أخطر من اليهود، وهم ملاعين وكفرة!! "

المئات تحيط بمنزل الرجل الغريب ، ويصرخ أحدهم فى سماعة الميكرفون بخروج الزنادقة للشارع حتى لا يضطر أبناء رسول الله إلى اقتحام البيت والتمثيل بجثثهم.

سيارات البوليس وقفت بعيدًا عن الجموع ونفذت التعليمات ، فتح الضابط الكبير الكردون ليدخل اهل القرية بمنزل الرجل الذى لم نرَ وجهه البشوش إلا فى الموالد والاحتفالات الدينية، صارخين فى جنون.

كان الغريب يستضيف بعض أبناء طائفته ليحتفلوا بليلة عاشوراء ، لكن الشيوخ الذين يعرفون مكيدتهم ملأوا حوائط القرية بصور الزنادقة الذين يسمون نفسهم شيعة، عند ذلك قال أحد الهادرين وهو يُلِّوح بسيفه اللامع: " شيعى ولا شيوعى كلهم كفرة ويستحقون الحرق!! "

أطلق شيخ آخر صيحة مفزعة ، وقال: " أين الرجولة والنخوة يا شعب النزلة؟ "

عند ذلك أحكم " شحاتة " باب منزله وأغلقه بالمتاريس ليحمى نفسه وضيوفه من غدر جيرانه ، وبتلك اللحظة ألقى مئات الشباب المولوتوف والحجارة من أعلى المنازل، وقام مئات آخرون بالصعود إلى سطوح الجيران، مُحمَّلين بالآلات والشواكيش وفتحوا بسقف المنزل الخرسانى " خُرْمًا " كبيرًا بحجم قرص القمر، وأطلقوا منه الرصاص ليرعبوا "شحاتة " وضيوفه، بعدها نزل العشرات من الفتحة إلى شقة الغريب ليسحبوه مع زوجته وأبنائه وضيوفه إلى خارج الشقة عرايا.

ربطوهم من رقابهم بالحبال ونزلوا بهم السلالم، وسلَّموهم ببراءة للأهالى.

حينما نزل الشباب من فتحة السقف تفاجأوا بالشيعة يقيمون الصلاة، فقال أحدهم: "إنهم يخدعوننا ولن تنطلى حيلتهم علينا "، وانبرى آخرون بغرس سن السيوف فى أجسادهم، ليؤكدوا تمثيلهم، وحين لم يستجب الشيعة لكل هذه التهديدات، وسالت دماؤهم على سجاد الصلاة، جروهم كالسبايا .

لم يعد هناك نبض أو عرق، الكل يرغب فى التشفِّى، ويأمل أن يعلو ميزان حسناته عند رب العالمين بالمشاركة فى قتل الزنادقة الملاعين، تجمع المئات على جثث العرايا أنصار الإمام "علىّ" وحشوا بطونهم وأكلوا أكبادهم سعداء بنصرة أل البيت .

"فتح "

فى ليلة كهذه ومنذ عشرات السنين كان هنا مسجد يفتح أبوابه لكل عابرى السبيل، يدخلون إلى ميضته ليغتسلوا ثم يذهبوا إلى الباحة الواسعة ويناموا على السجاد الطرى وينعموا بنسمات الهواء التى تدخل من شبابيكه الواسعة.

كنا نجلس مع أهالينا فى ساحته، لنشاهد تمثال رمسيس قابعًا وسط الميدان فى الحديقة الواسعة كالملك ، نفترش الأرض بعد توزيع اللبن بحى الفجالة ، ونأكل ساندويتشات الطعمية كأنها طعام الجنة.

كان الحى نظيفًا وممتلئًا بالنساء والرجال الذين تتضح روائحهم بعطر الياسمين خاصة فى أيام الآحاد، المحلات تغلق أبوابها ، كعادة توارثوها ، ومع ذلك كان النور يملأ وجوه القهوجية وأصحاب المطاعم وبائعى العرقسوس والجزمجية وأصحاب اللوكاندات التى تفتح أبوابها وتضج بحياة مختلفة عن حياة قريتنا.

تتمخطر النساء فى دلال ويضعن الكحل فى عيونهن والأحمر على خدودهن، ويسرن وسط الأزِقَّة كأنهن يتمخطرن على شاطئ بحر يعرفن شطآنه.

القصص والحكايات تتناثر فى المقاهى حول عيون " صابحة " الخادمة، وسطوة "قرماوى " صاحب نصبة الشاى، ولوع " عساوى " سمسار الأجهزة الكهربائية الذى يعرف الزبائن من نبرة صوتهم وطريقة سيرهم.

كل هؤلاء البشر يحيطون بالمسجد ويلتقون حوله كل صباح، ليطلبوا الرزق من الفتاح العليم.

أضحى المسجد علامة على الميدان، لكن تمثال رمسيس ظل حتى بعد نقله إلى الصحراء يشارك المسجد فى الوجود والذى ما زال الجميع يطلقون عليه " ميدان رمسيس ".

بعد أن مر العمر الطويل وأصبح الأطفال رجالا ، تحول الحى إلى سوق يضخ بألوان مفزعة وأغانٍ غريبة، وتوارثتُ مهنة اللبَّان عن والدي الذي حمل على عاتقه رى الجميع بالحليب الصابح .

كنت اقف بالميدان واتذكر تلك البهجة وانا احمل سطل اللبن مندهشا من كم البشر الذين تجمعوا حول المسجد مقررين هدمه، لم أكن أعرف السبب، وتصورت أنهم نصارى، لكن الزبيبة التى كانت تملأ جباههم أعادتنى إلى عقلى فسألت أحدهم: " هل داخل المسجد قنابل أو شياطين؟! "، فرد مبتسمًا على سؤالى، قائلا:" فى المسجد إخوان مسلمون وهذا يكفى لقطع رءوسهم وحرق أجسادهم!! "

لملمتُ حمولتى، وسرت وسط الجمع المسلح محاولا دخول باب البحر من شارع الجمهورية، لكن دبابات الجيش وقفت معلنة فى وجه الجميع التحدى، إذ لا يمكن أن تترك بوابات المحلات التى تمتلئ بالأجهزة دون حراسة، لكنها تركت المصلين داخل المسجد وسط النار لحترقوا فى هدوء.

السجاجيد المحترقة حولت المصاحف إلى سواد، أخشاب الشبابيك المخلوعة والمنبر العالى المدهوس والأبواب المفخخة والمملوءة بالمسامير حولت الأرضيات إلى بحر من الشوك، ومع ذلك سرتُ وسط الجموع باحثاً عن ابنى، لو كنت أعرف ما سيجرى ما كنت أحضرته معى.

الأسى يُمزِّق أحشائى وأنا أتذكر الحلم الذى راودنى ليلة الأمس عن السلَّة التى حملتها على رأسى ونزلت بها إلى السوق وكانت تمتلئ بالأسماك، وحين أنزلتها على الأرض وجدتها مملوءة بالثعابين التى هربت من بين أقدامى، وتركت السلة مملوءة بأصابع أيادٍ مقطوعة كأنها حبات فاصوليا!!

صرخت وسط الجموع المرعوبة " يا حسن .. فينك يا ضناى؟ "، كان معى قبل احتراق المسجد وحمل سطل اللبن الصغير ودار على البيوت والمقاهى، وداعب الأطفال والشيوخ وذكَّرنى بطفولتى.

كررت ندائى صارخًا: " أنت فين يا ولدى؟ " فوسانى الجميع وبكوا لحالى، وعندما شاهدت البلطجية يضربون الجمع بالسيوف والشوم فوجئت بابنى تحت أقدامهم .

ارتميت عليه وأخذته بحضنى، وحاول الضابط سحبنى من عليه ، فصرخت متوسلا رحمته : " ده ابنى يا باشا، ومايعرفش حاجة عن الجماعة "، نظر بجنون ناحيتى قائلا: " ابعد يا راجل لحسن أمونك، " استكملت صارخًا: " ارحموه ده عيل وميعرفش حاجة ".

اقترب ضابط آخر فى نفس اللحظة ، وسألنى بتهكُم: " هو لسه عايش يا راجل؟! "، رددت باكيا: " أيوه يا باشا وبيبوس ايداك"، فأخرج طبنجته الميرى وأطلق الرصاص في رأسه، قائلاً بفخر: " الآن يمكنك أن تأخذه إلى القبر ".

" **اغتصاب** "

رفعها بقوة فى السماء ووضعها بجوار السور، ومزق مشدها وكلوتها بأظافره، وأدخل عضوه فى فتحتها، وشهق كأنه يسحب الحياة من قلبها.

الأضواء الخافتة فوق سطح العمارة دفعتهما لأن ينغلقا على نفسيهما ويعاشرا بعضهما ، لم يزعجهما صوت الرصاص والدم الذى ملأ ملابسهما الممزقة.

أثناء معاشرته كانت أظافر يديه تدهس نهديها وتفتك "بليتها"، ولم يوقف جنونه صراخها أو تنهيداتها الحزينة، وعندما انتهى ، ارتدى ملابسه، وبصق على الأرض، وعاد إلى الشارع فى سلام.

رغم بكائها الخافت ارتدت ملابسها فى حسرة، ووضعت شبشبها البلاستيكى فى قدميها لتعود إلى الشارع، مترجلة درجات سلم العمارة المرتفعة، لكنها فوجئت بثلاثة جنود يندفعون وراء بعضهم.

أفسحت الطريق ليمروا ، لكنهم أحاطوها، وعادوا بجثتها مرة أخرى إلى السطوح ووضعوها بجوار السور، وفعصوا جسدها ، وأخلعوها جلبابها فظهرت نهودها وأفخاذها اللينة كحورية.

تصارعوا فيما بينهم على امتطائها، ورغم عدم وصولهم لقرار بمن يبدأ فى التهامها، لكن أحدهم لم ينتظر نتيجة المفاوضات وأدخل عضوه الملتهب فى فتحتها، وأحاط الثانى بوجهها محاولا التهام شفتيها، بينما طاف الجندى الثالث حولها بعضوه المنتصب ، برك على بطنها محاولا دق قضيبه فى سرتها المفتولة.

بعد قذفهم الثلاثة على جسدها، ارتدوا ملابسهم ، ونزلوا مرة أخرى من سطح العمارة فخورين برجولتهم، حاولت لملمة نفسها لتغطى جسدها ، لكن الحشرات والسحالى تشممت رائحتها، فتناوبوا على لحس فرجها جسدها المنهك، حاولت رغم عجزها وآلامها أن تدارى عريها خوفا من الفضيحة ، حاولت ان تصرخ لكن صوتها لم يعد له وجود .

سمعت وهى تبكى أذان الصلاة المرتفع من مِئْذنة الجامع، وصدحت الكنيسة القريبة بترانيم قوية دلالة على وجود الرب الرحيم، قامت واستندتْ على سور العمارة ونظرتْ إلى الميدان الواسع، لكن سحب الدخان والغاز أعاقت عينها عن رؤية جثث البشر التى تملأ الإسفلت .

تذكرت الدماء والرصاص والوجوه المرعوبة، فقررت أن تظل فوق السطح حتى انتهاء المعركة.

حينما جاءت للميدان كانت تبغى " منامة " ولقمة تحميها من الموت ، وشاهدت المتظاهرن يملأون الميدان بوجوههم الطيبة، فعلمت أنها سوف تعيش بوسطهم آمنة.

لكن فجر اليوم حدث ما لم تكن تتوقعه، المجنزرات والدبابات أحاطت بالميدان ودخلت فى توحش تدهس الخيام والجثث، وقتها جرت مسرعة إلى السطوح، لكن البلطجية والجنود تعقبوها واغتصبوها دون رحمة ، كانت حزينة ليس لتوحش الجنود، ولكن لجنينها الذى نزل ميتًا جراء ما حدث.

" رِمَم "

أنهار من الدم تجرى من أمامى وخلفى، وأنا أسبح فيها غير عابئ بالجماجم والأكباد التى تحيط بجثتى ، سرقو بطاقتى من جيبى، وعلقوا عليها هويتهم، وجروا من حولى راغبين فى الخروج .

عندما وصلوا لمبتغاهم وتركونى، شاهدت النساء تقذف عن آخرها من طشوت الغسيل بقايا البطون المحشوشة فى مياه النهر، لم يعبأوا بلون المياه الداكن، ولا رائحة الدم التى ملأت الحى، لم أندهش لبرودهم ، لكننى تسألت: " كيف جرى كل ذلك التغير على حياتهم ؟ "

أمسكتُ مقود الدراجة بقبضة يدى، ودستُ على الكفة الملتصقة بالبدال وسرت وسط الشارع، حينما ولدتُ فى هذا المكان كانت هناك أشجار وترع وحقول، كنا نربى المواشى ونحلب الألبان فى الأوانى الصاج، ونحملها إلى المدينة ونبيعها للسكان والمقاهى.

رويدًا رويدًا زحفت على حقولنا المبانى واختفى الفلاحون فى ملابس جديدة، وامتهنوا الحرف، ونسوا وَحْل المواشى وتطهير الترع ومواسم الحصاد، وانغرسوا فى الصخب، مبتهجين بأنوار المقاهى وطعم اللحم المستورد.

حتى النساء التى عرفناها، والتى كانت تصحو من الفجر تحلب البهائم وتضع أكوام الروث فوق السطوح وتجففها لتخبز بها فى الأفران البلدية، سعدت بأزواجها الذين امتهنوا الحرف، ونزلوا كنساء البندر إلى الأسواق ليتبضَّعن الجبن الرومى والكبد المستورد والبيض الملون!!!

ومع ذلك حين تنشب المعارك بين السكان الجدد وبعض العائلات، انبرى الجميع متمسحًا فى الماضى، فيتذكر عائلته وأولاد عمومته، ليلقنوا الغريب درسًا فى طريقة العيش وسط البيوت التى كانت زرائبَ.

انطلقتُ بدراجتى وسط الحوارى التى لم أعد أعرف سكانها مبحلقًا فى عيونهم، توقفت قليلا أمام المقاهى الممتلئة بالبشر، ونظرتُ على الطوابير التى تزاحمت على أفران العيش، واستكملتُ سيرى حتى عدت من جديد إلى شاطئ النهر الذى مازال يجرى رغم الجنون الذى لحق بحياتنا.

ركنتُ دراجتى ونزلت بهدوء حتى لامست أطرافَ أصابعى مياهُه، وخلعت ملابسى ونزلت متسحبًا إلى مياهه، لكن بائعات الكرشة والممبار ونساء العربجية اللائى يحملن روث الحى وقمامته لم يندهشن لوجودى، واقترين بحمولتهن من الشط، وأفرغن الأكياس والطشوت والحمولات فى المياه التى تحوَّل لونها إلى سائل داكن أشبه بالمُخاط.

سبحتُ وسط كتل الرمم، ودستُ على الزجاجات الفارغة والمهشمة حتى خرجت سليمًا رغم النتانة التى علقت بجلدى.

عفرت جسدى فى التراب والرمال التى مازلت آثارها باقية، وارتديت ملابسى وركبت مرة أخرى دراجتى سائرًا فى الحوارى التي كانت تمتلئ منذ عشرات السنين بحقول الذرة والقمح وأشجار التين، وقلت لنفسى: " لا يهم، لا يهم، فأنا مازلت حيًا ".

فى تلك اللحظة انطلق الرصاص من فوق رأسى ، وشاهدت وجوهًا مقطوعة لصبية يحملون جثثًا مطحونة ويلقونها بهدوء فى المياه.

حاولت العودة بدراجتى إلى الحى، فطال قدمى رصاصة ، فارتميت على الأرض بجوار جثة صبى صغير ملتحٍ يشبه ابنى، ناولنى ببراءة يدا لآدمى كانت مقطوعة من الرسغ.

شاهدت أصابع اليد الأربع مرفوعة فى غرابة وقوة، لكننى لم أعثر على أصبع الإبهام الخامسة، فنظرت إليه محاولا فهم الرسالة، قال بأسى وهو يموت: " رابعة!! "

" **نزيف** "

فى لحظة غير متوقعة، تجمع الملايين من الناس فى الشارع، متسائلين عن مصيرهم.

تجمعوا وهتفوا وساروا ساعات طويلة دون طعام، متسائلين عن المفاتيح التى سرقها اللصوص وأطلقوا المساجين من الحبس.

الوحيد الذى يعرف السر عاش بينهم فى هدوء وصمت، محاولا قياس الأثر الذى على أساسه سيعلن لحظة النهاية.

تركهم مذهولين فساروا كأنهم فى حلم، لم يسأل أحدهم الآخر عن اسمه أو مكان إقامته أو حياته، ساروا كالبغايا إلى المجهول، لم يكن فى عيونهم إلا التساؤل الذى حيرهم عن جنسية اللص الذى تمكن فى لحظة مباغتة من سرقة مفتاح الحياة.

قبل ظهور المساجين وهدم الأسوار كانوا ينعمون بالسلام، يقيسون الخطوة بالشارع، ويسيرون فى الظل حتى باب المصانع، ويفسحون الطريق أمام بعضهم بالأسواق، ويتركون المياه تسير فى الحنفيات، ليشرب سكان الأدوار العليا فى سلام.

يغلقون الأنوار بالليل حتى يوفروا الطاقة، يسترشدون فى استهلاك المياه، فلا يستحمون إلا مرة واحدة كل عام.

لم يكن يهمهم إلا المرور الآمن إلى البر الآخر الذى يجهلونه، ومع ذلك حين أطلق الذئب المساجين، وفتح الأبواب المغلقة وهدم الأسوار، جحظت عيونهم وتاهوا وسط المساحات الضيقة التى ملأت حياتهم.

لم يعوا طوال تاريخهم هذا الحجم الهائل لاحتياجاتهم، كانت تكفيهم نظرة عين آملة فى يوم تخرج فيه الشمس من جديد.

لكن ملامح الناس اليوم مختلفة عن أقرانهم السابقين؛ فالشمس تخرج الآن كل صباح حزينة، والأسواق المفتوحة للجميع تضج بأكوام القمامة، والباعة يملأون الشوارع ويصرخون كالغجر فى تشفٍّ وغدر، والنساء تسير بصدور عارية تطالب الرجال بإثبات جدارتهم.

لم يتعودوا على حياة الحى الجديدة الذى تربوا وعاشوا فيه طوال تاريخهم.

تساءلوا وهم ينظرون لبعضهم كالأغراب: " ماذا حدث، ومن سمح لجوارحنا بالانطلاق فى الهواء الجديد الذى لم نشمه طوال حياتنا؟ "

لم يكن هناك أحد ليجيب عن أسئلتهم، فالمجرم الذى يعرف السر، أخفى المفتاح ببراعة فى عين البئر التى لا يمكن الوصول إليها فى هذا العصر.

ساروا جماعات وفرادى، مُندِّدين بالعهد الجديد، اندفعوا على المقاهى فى مناقشات مفتوحة تترحم على العصر البائد، وصرخت النساء فى وجوه الرجال، وتشاجر الرجال مع أطفالهم، مدهوشين من الحاضر الذى دخلوا فيه بغير إرادتهم!!

كل يوم يخرجون من المنازل ويسيرون فى جماعات إلى الميادين، وينظرون بأسى فى وجوه بعضهم، آملين معرفة السر الذى أدى إلى هدم الجدران التى حبسوا أنفسهم خلفها طوال مئات السنين.

حينما يعودون آخر الليل إلى شققهم ومنازلهم يبحثون عن إشارة تدلهم على الطريق القويم الذى يؤهلهم لنهار الغد، لم يكن إلا الشجار والصراخ والتعديد على الزمن الماضى.

شىء واحد جعلنى أراقبهم وجرح قلبى وأدمع عينى على حالهم المكسور.

إذ كيف تمكن هؤلاء البشر خلال هذه السنين الطويلة من العيش داخل أرواحهم المظلمة؟ وكيف يمكنهم أن يتعلموا السير فى الشوارع المملوءة بالنور والبهجة مرة أخرى دون خوف؟

لكنَّ جماعة من الملتحين الذين يركبون الموتوسيكلات ويحملون البنادق الآلية، ويطلقونها فى غدر على كل ما تراه أعينهم، جعلتنى أفيق من غيبوبتى.

اختبأتُ بين الحوائط حتى مرتْ مسيرة الموتوسيكلات وقبل أن أصحو من ذهولى، كانت مسيرةِ أخرى بالتكاتِك والمجنزرات تطلق قذائفها فى الشوارع على الأحياء والأموات.

اختفيتُ بجوار أحد الجدران، واقتربتْ طفلة صغيرةِ من جسدى ، حملتْ فى حجرها فوارغ الرصاص ورسمتْ على الأرض خريطة ومربعات راغبة وقالت مبتسمة: " عمو تلعب معى السيجا؟! رمقته صامتاً، فنظرتْ فى حُبٍّ إلى عيونى ووضعتْ أصابع يديها على جرحى لتوقف نزيفي.

" **رصاصة** "

يوم طويل مر كعادة هذه الأيام ولم يترك بروحى إلا الإحساس الميت.

مشاعر جديدة تتفتح ببراءة لتستقبل أحداثًا ومشاهد مبهرة، لكنها أصبحت غير مدهشة.

عندما سمعت خبر حرق قسم الشرطة توجهت إلى هناك دون إرادتى، وشاهدت أحد الصبية يحمل بندقية آلية مسروقة من داخل القسم المحروق، ويجرى وسط مئات البشر المتفرجين، والبلطجية يجروى خلفه لإعادة البندقية التى أخرجها من وسط الحريق.

وبدون مناوشات كثيرة، التفوا حوله، وحالو سحب البندقية من يديه، وأطلق أحدهم الرصاص من طبنجته ليقتله فى الحال، ورغم ألمه ضغط على الزناد ليفرغ الست وثلاثين طلقة فى العشرات التى جاءت تتفرج على الحريق، ليغرقوا فى دمائهم التى سالت على الإسفلت.

، كانت عيونه مدفونة وسط جفونه، وفمه المفتوح باندهاش ينتظر الفرج، وأنفه الذى استطال أملا فى شم رائحة البحر، وشعره المبعثر على وجهه وجبينه حوله لوحش، ومع ذلك وقع على الأرض بعد أن تكاثرت عليه الأقدام وداست جثته.

الحكايات تتناثر من حولى، وتسألنى فجأة امرأة جميلة تمسك فى يدها طفلة صغيرة وتحمل طفلة أخرى على كتفها: "مين اللي مات يا خوى؟!"ودون وعى سحبتها من يديها، وتَوسَّلتُها أن تبتعد عن بأطفالها.

رءوس الناس تتدلى من شبابيك القسم، والدخان يملأ السماء، الانفجارات تتوالى من داخل المبنى، والمنازل المحيطة تفتح شبابيكها، وتصرخ نساؤها على الجماهير الهادرة التى تتفرج على الخراب .

الجميع يؤكد أن الملتحين خطفوا المأمور قبل اندلاع الحريق، حاولت أن أستريح على المقهى، فرمقت النادل يرحب بعدة أشخاص يعرف أسماءهم ويعاملهم برفق، عرفت من الزبائن أنهم المخبرون والمرشدون الذين لطخت أيديهم وجوه الجميع، قالوا بكل صراحة أمام الجمع الغفير :" حينما علمنا بالخبر ، فتحنا أبواب التخشيبة حتى لا يموت المحابيس من الدخان ".

عدتُ مرة أخرى أمام القسم فشاهدت البلطجية يجرون أمام المتفرجين بمكاتب وتكييفات و بنادق وسواطير سرقوها من القسم، و يصرخون فى الجموع: " وسَّعوا يا كلاب ".

عيونهم المبتهجة والمدهوشة فى امتنان من اقتسام الغنائم التى تركها الضباط تبحث عن الممرات الآمنة، كانوا فخورين باقتنائهم رائحة بعض الأشياء التي تعذَّبوا من وجودها خلال حياتهم.

طوال الليل لم ينم أحد فى الحى ، الجميع وقف يتفرج على النار التى أكلت الأسوار والقضبان والأبواب.

حين هدأ الحريق وانطفأت النار شاهدت بعض الشباب يدخلون القسم سعيدا بترجله وسط حجرات التعذيب والتخشيبة دون سماع أصوات المخبرين والضباط، عندما خرجوا مرة أخرى إلي الشارع، نظروا إلى المبانى والناس والسيارات بغرابة، كأنهم يعيشون داخل حلم.

فى تلك اللحظة شاهدت مسيرات الملتحين والبلطجية أمام القسم المحروق، تقابلوا فى حذر وهتفوا، متهمين بعضهم البعض بالخيانة والغدر، ثم تقاتلوا فى توحش كأنهم أبناء غابات وصحارى .

" **رعب** "

للخوف أعمدة كثيرة، للخوف هالة لا تراها، تتسحَّب داخلك وتركن بأعماقك، وتسألك: " أنت الآن بخطر؟ "

تنتشر فى شرايينك وتضخ فى قلبك الهواء الملوث بالكذب، وتبث فى بقايا جسدك المرض والرعب، وتسألك فى براءة: "أنت الآن مريض ومحاصر، لكن لا تقلق ".

أعمدة الخوف كثيرة وغير مرئية، الجميع يقدمها بالمجان، لا تتكفل الشرطة وأجهزة المخابرات إلا بصنع بعضها، لكن بقايا الأعمدة يصنعها المحيطون بك: البقال والسائق وزوجتك وجيرانك وزملاؤك وأهلك.

تتحسسها فى الشوارع وفى الفراغات التى تحيط بكراسى المقهى، وتشعر بها حين تأتى عينك بالمصادفة فى عين بائعة الجبن القريش بالسوق، تتلمسها فى الفضاء داخل الصيدلية عندما تطلب من الدكتور أن يعطيك حقنة فيتامين "ب" .

وحين يدخل فى جسدك المهترئ سن الحقنة، وتصرخ فى صمت: " آه " ، يحاول التمرجي تلطيف الجو، قائلا: " ألف سلامة عليك يا وحش!! "

تخرج من عنده وتذهب للمخبز، وحين يفاجئك البائع بطلبك المعروف، وتنظر ليديه لتناوله الجنيهات القليلة، يأخذها بشغف، وينظر للزبون الذى يليك قائلا فى نبرة تعود عليها: "عايز حاجة يا أستاذ؟"

عندما تصطدم بسيارة البوليس التى تقف على ناصية الشارع، تتخفى وتحاول أن تدارى الأكياس المملوءة بالخبز، حتى لا يفاجئوك ، فعيونهم الآن تبحث عن الضحايا المعروفين بملابسهم البيضاء ولحيتهم الطويلة، الذين سيجمعونهم فى البوكس، ويرحلون بهم إلى التخشيبة، ليثبتوا تفانيهم فى عملهم.

أنت محاصر منذ اللحظة، فيجب أن تمشى وتعد أنفاسك وخطواتك، حتى لا يتهمك أحد بأنك تناصر أحد الفريقين المتصارعين ، ويأخذون روحك بالمجان، ويُعمون عيونك عن رؤية الشمس.

حاذر، فالسماء مليئة بالغيوم التى لا يعرف أحد متى ستزول ليظهر من جديد ضوء الشمس .

لا أدرى لماذا وقفت فجأة؟ ونظرت لشجرة الصفصاف الوحيدة بالشارع، لم يكن هناك أى هواء لتهتز أوراقها.

ومع ذلك سرت حتى جذعها ووضعت يدى عليه، فسرى الدم فى جسدى من جديد، مدَّنى بالأمل فشاهدت نجوم السماء تنشر ضياءها فى سلام.

تحسست أكياس الخبز ونظرت بغيظ لسيارة البوليس وعيون المخبرين وسرت متجها إلى منزلى، غير عابئ بكل هذا الخراب.

" محاكمة "

وسط قاعة المحكمة انتظرنا جميعًا خروج القاضى من حجرة المداولة، وحينما صرخ الحاجب: " محكمة "، وقف الجميع دلالة على احترام العدالة.

أشار بعيونه فى غيظ ليجلسوا، وأعلن بيديه للحاجب دون صوت لينادى على المتهم.

ثلاثون مرة وهم ينادون عليه، وهو ينصاع لأوامرهم ويحضر فى خنوع ليدافع عن نفسه، ولأن التهمة مفبركة والأدلة غير مُعدَّة جيدًا، تضطر المحكمة أن تفرج عنه، ليس لبراءته، ولكن لأن أوراق القضية خلت من الدليل القاطع بجُرمه!!

فى هذا اليوم لم يرد على الحاجب، وترك النيابة تفنِّد اتهامها الواضح بالأدلة، فى تلك اللحظة نظر للجمهور الذى ملأ القاعة، وتحرك باتجاه المنصة، ورفع جلبابه الأزرق فى صمت، وطرطر على الجميع!!

لم يتمكن الحراس من وقف خرطوم المياه المنطلق من قضيبه بسبب هول المفاجأة، لم يستطع القاضى ولا النيابة ولا السكرتير الذى يسجل دبيب النملة فى القاعة أن يتحاشوا طرطشة الصنان الذى طال وجوههم.

لكن اللافت للنظر أن كاميرات الفضائيات التى جاءت لتصور حكمة القاضى الذى سينطق بحكمه العادل كالعادة، التقطت وجه المتهم المبتسم، وأظهرت أطراف أصابعه الناعمة التى أمسكت بعضوه، وبينت لون عيونه وجبينه المرفوع.

فى لحظة مباغتة دخل الحراس وأمسكوه وشدوه من خصيته وجرجروه برفق إلى داخل القفص، ليعلن القاضى لأول مرة حجزه والحجر عليه ليس على جريمته التى لم تثبتها الأوراق، ولكن لتهوره وجنونه الذى شهد عليه الجميع.

استعاد المتهم ثقته بنفسه رغم القضبان والأقفال التى وضعها الحراس على الأبواب ورفع مرة أخرى جلبابه وانطلق ليعيد نفس المشهد داخل القفص.

انتفض الجمهور صارخًا فى القاضى ليشدد حكمه؛ إذ كيف يهين المجرم الجميع، والقاضى والنيابة والضباط مذهولون وعاجزون عن كبح جنونه؟!

خرجت ضـحكته مُدوِّيـة فـى القاعـة، ولـم يكـن هنـاك حـل للقضـية سـوى الحكـم بتحديـد إقامته وإجباره على العيش وحيدًا فى قصره الباقى من عمره.

لكن الحقيقة أنهم ولأول مرة حققوا أمنيته، إذ لن يعود مرة أخرى إلى هذه القاعة، فالقانون والنيابة يرفضان محاكمة الأبرياء، وحين سألته بعد سنوات عديدة: " لماذا قام بهذا الفعل ؟ " رد بسخرية: " مهزلة!! "

" محظور "

بعد أن استرسل القاضى فى حكمه بوصف الجريمة، وقف على المنصة ومسح عرقه، وقال فى جملة أخيرة: " أطالبكم جميعًا، النيابة والجمهور والشرطة وساعى البريد والعامل والفلاح، بأن تتنبهوا للخطر، لا أحد منذ الآن فوق المساءلة، سنضرب بيد من حديد، ولن نهاب شيئًا منذ هذه اللحظة ".

انتشر الخوف فى القاعة، وملأ الرعب جفون الجماهير التى جاءت تتشفَّى فى القاتل، وعندما غادر المنصة لم يكن إلا الهمس وصوت اليمام الذى جاء من أعلى السقف.

رغم أنى وقفت من بعيد أشاهد الوجوه التى حاولت اخفاء شماتتها، لكنى شعرت بقشعريرة أجسادهم، وهم يشاهدون الضابط يسحب المتهم الذى عرفوه من وسطهم ويخرجون من القاعة إلى سيارة البوليس.

كيف عرف هؤلاء الناس طعم الحياة دون شعورهم اليومى بسوط العجز ينزل على جباههم؛ ويظهر لهم دائمًا فى الطعام الذى يجب مراقبته فى الأسواق؟! وحين يشتد الخوف فى أرواحهم ويتبدى قويًا، يخرج لهم فى شكل صاحب العمل الذى يهددهم بتلفيق التهم حال مطالبتهم بتخفيف ساعات العمل أو زيادة الأجور.

يهرول وسطهم ويندس فى قلوبهم فى أثناء المشاجرات وسماع سرينة السيارات التى تلمع أضواؤها، ويتبدى لونها الأزرق المكتوب على جانبيها " بوليس ".

أين السماء التى ملأتها السقوف والتى كشفت منذ الميلاد حدود طموحاتنا وآمالنا؟

فى كل مراحل حياتنا هناك قرين، ينير لنا الطريق حتى لا نقع فى المحظور، يختبئ فى البيت والعمل والشارع والمدرسة والمسجد والمقهى والمصحة، ينمو داخلنا ويعيش بأرواحنا ليرشدنا حتى لا نقع فى بئر الشر، ماذا يمكن أن يحدث لحياتنا لو مات القرين ؟ لو صحا الناس من نومهم، وفوجئوا بعدم وجود حدود لحياتهم، ماذا يفعلون إن غاب الشخص الملتحى أو الأفندى الذى يرشدهم دائمًا لطرق النجاة من المخاطر التى تملأ حياتهم؟

فى بلادى لم يجرب الناس أبدًا العيش بدون الرجل الناصح الذى يعلم كل شىء عن خبايا النظم والحياة والدين والتاريخ.

لم يفكروا أصلا فى طريقة بديلة للحياة بدون المرشد الذى تربى داخلهم وعلَّمهم التريث قبل اتخاذ أية خطوة.

هنا لا توجد أجازات من العمل، فقط الفراغ أو البطالة التى تجبرك على الشماتة والحقد ضد الذين يعملون ليلا ونهارًا.

لا توجد زيارات للحدائق، أو الذهاب لدور السينما والمسرح، أو مناقشات للكتب، أو سماع آراء بعضهم فى نوعية الحياة الصحية السعيدة.

فى بلادى لا يوجد سوى صوت واحد نعرفه جميعًا، صوت الجوع والمرض والاحتياج، صوت تجار الدين الذين يعرفون من أين تؤكل الكتف؟

ولذلك حين جاءونى فى أحلامى ليلة الأمس، وطالبونى بالديون وبمقابل الخدمات التى قدموها لى فى رحلة حياتى، لم أندهش وقلت لهم بكل صدق: " انتظروا حتى يأتى الفرج ".

أخذونى من يدى لأشاهد جلسة المحاكمة للخارجين عن قانونهم، ارتعبت من القضبان وعيون القاضى الميتة، وقررت التوبة بصوت مسموع كى يصدقونى، وحلفت ميت يمين بأننى سأعيش الباقى من عمرى وسطهم، غير عابئ إلا بتسديد ديونهم.

التفوا حولى وطالبونى بالتوقيع على أوراق بيضاء ليملأوها بإقرارات وضمانات تحمى حقوقهم التى طال انتظارها، وحين رفضت أخرجوا سكاكينهم الطويلة وقطَّعوا جسدى وتركونى حيًا لإعطائى فرصةً أخيرة لسداد الدين أو الإقرار بوجود القرين الذى يعلمنا كل شىء.. كل شىء ويهبنا حتي هويتنا .

" **همس** "

فى صباح يوم المجزرة فتح الجزار والطعمجى والفكهانى دكاكينهم، ووقفوا وسط الشارع يستقبلون العزاء.

الصمت يملأ الحوارى، والعيون الحزينة ترمق بضائعهم وتستكمل السير.

لا أحد فى هذا الشارع سوف يتذوق الطعام بنفس البهجة.

عندما خرجت من منزلى هذا الصباح، كنت راغبًا فى مشاهدة الحاضر ورؤية الناس لماضيهم، الذى مر منذ ساعات.

جلست على المقهى أسمع حديثهم عن المعركة التى وقعت بالأمس، وحلَّل الجميع المشاهد التى افتعلها أصحاب اللِّحى الذين خرجوا فى جماعات وأطلقوا النيران على الجميع، فانبرت قطة صغيرة ومرت من وسط الشارع إلى الرصيف المقابل، ونظرت لعيون الجميع فى دهشة.

قال الطعمجى والمكوجى والسائق والسباك والنجار رأيهم فى الدم الذى ملأ الشوارع بجثث جيرانهم وأبنائهم الذين تصدوا لسيوف الملتحين.

وتناول آخرون وصف مشاهد المقابر التى جمعت الجثث دون تفرقة بين مسلم أو مسيحى.

وتحدثوا كالرواة عن ماضيهم، فذكروا مناظر الأمهات اللائى ملأ الحزن قلوبهن، وأعادوا تكرار بعض الجمل التى أطلقتها الفتيات والأطفال تعديدًا على رحيل المفقودين.

صرخ أحدهم فى النادل ليأتى بالشيشة والشاى، وحضنوا بعضهم البعض برضا مواسين أنفسهم فى الضحايا الذين راحوا نهارًا وليلة الأمس.

وحين ركن اللورى الكبير المملوء بالعساكر بجوار المقهى، ونزل الجنود بالخوذ والرشاشات ووقفوا على بوابات الحوارى سمعت دبيب الخوف يعود مرة أخرى إلى وجوههم، وجلسوا فى صمت يبحثون داخل أنفسهم عن سبب لكل هذه الجراح التى جلبها الخلاف الطويل بين أنصار المتصارعين على دفة وإدارة العجلة.

الشـىء الغريب أن عيون الضباط والجنود التـى مـلأت الشارع، بحثت بدأب عن الهمس بين أنصار الفريقين الذين أظهروا حيادهم وولاءهم فقط للاستقرار الذى يرغب العسكر فـى فرضـه بحب بصرف النظر عن فُوَّهات البنادق المرفوعة فى وجه الجميع.

حينذاك قلت لنفسى: " لا يهم، غدًا سآتى إلـى المقهى، وأسمع رأيهم فـى أحداث اليوم، غدًا ستصبح كل هذه الأحداث ماضيًا لا يهم أحدًا ".

" أراجوز "

لم يسألونى عن رأيى، ولم يفتحوا الجرح القديم وجلسنا كأغراب على المقهى، نتفرج على الأراجوز الذى ملأ وجهه شاشة التلفزيون وهو يبتسم و" يُلَعِّب " شنباته القصيرة كالقط، ويختار الكلمات والجمل التى تصف الحادث الإجرامى بأنه وقع بالصدفة وبأن علينا أن نتعامل مع الواقع، إذ لا يهم الآن عدد المفقودين أو جنسية الضحايا، فالمهم هو المستقبل وشكل البلاد أمام كاميرات الدنيا المشغولة برائحة صنانا.

بادلونى النظرات ثم رجعوا بعيونهم مرة أخرى إلى الشاشة التى تراقص فيها الأراجوز مدللا على سر انبهاره من قوة الشعب العظيم الذى كشف عن قوته الجبارة فى اجتياز المحن.

انتظروا رأيى فى الخيارات التى أعلنها مجرم الشاشة، خاصة حين صرخ فى قوة مؤكدًا أن حياة الملايين فى كفة وهيبة الدولة فى الكفة الأخرى.

لم يكن يهم حجم المجروحين والمصابين وعدد القتلى المتساقطين على أبواب المصحَّات بسبب الأعطال التى شابت أجهزة الغسيل الكلوى، أو نقص جرعات الإنترفيرون التى تخفف آلام الفيروس الكبدى.

لم يندهش الأراجوز من الطعام الملوث الذى يتناوله الناس بسبب الأعطاب التى تطول الثلاجات التى يحفظون فيها السجق والكبدة المستوردة.

لم تهمه رائحة وشكل الخراء الذى يملأ حمامات المدارس ونقص الطوب الذى يضعه الأطفال وسط مياه المجارى، ليتمكنوا من التبول والتبرز بالعين التى تغرق فى كتل الوسخ.

لم تتأسَّ المذيعة الجميلة من دموع الأمهات والزوجات على القهر الذى طال قلوبهم طول رحلة العمر بسبب موت الرجل أو ضعفه الجنسى أو طرده من عمله أو فقده مصدر الحياة.

ولم يعبأ الأراجوز بالأمراض التى مزقت أرواح الأطفال وهم ينامون فوق بعضهم فى الحجرات الضيقة والتى يضطرون بسبب ذلك أن يتحسسوا نهود وفروج أخواتهن البنات، أو تتفاجأ البنات بأعضاء إخوتهن الذكور منتصبة وسط صراخ الديكة كل صباح، أو بتجمع الحشرات على مراتبهم المفروشة على الأرضية بجوار مدخل الحمام الضيق.

لم يكن يهمه كل ذلك ، ولم يكن يهم أيضًا أصدقائى الذين جلسوا بجواري يستمتعون بتحليل الأراجوز الذي يعلن انتصار الفصيل الذى الدولة على فصيل الرجعية.

الشيء الذى جعل الجميع ينتشى هو صراخ الأراجوز معلنًا صمود مؤسسات الدولة فى مواجهة الغزو الأجنبى الذى تقوده فصائل الملتحين الذين تسلَّحوا لهدم جدران السجون، وقال ببراءة وصدق حقيقي: " نحن دولة كبيرة، ولا يمكن لوطنى شريف أن يسمح أبدًا بانهيارها ".

وحين فاجأته المذيعة بأسئلة حول مطالب الناس، قال بثقة وهو يمسح شاربه ويعدل رابطة عنقه: " المطالب الفئوية، نعم أعرفها وأتأسى لحالهم، ولكن لم يحن أجل تحقيقها بعد" !!

حينذاك نظروا فى وجهى وانتظروا سماع صوتى، لكنى عجزت كعادتى عن الإدلاء برأي، فقاموا ورءوسهم المتدلية إلى الأرض تعلن هجري والابتعاد عن طريقى.

" **حصار** "

الخطر يأتى من التليفون، يتصلون بى طوال الوقت ليطمئنوا على وجودى ، لكنهم لم يحددوا بعد ساعة قتلى.

من يدرى لعلهم قادمون، لا... سوف ينتظرون حلول المساء، وعند خروجى من الباب ، سيطلق أحدهم الرصاص على رأسى، وينطلق بالموتوسيكل فى الشارع مهددًا الجمع الذى سيستمتع بمشاهدة ارتطام جسدى على الإسفلت.

لا أعتقد أنهم سيقتلوننى بالرصاص، لكنهم سيدخلون فى الليل، ويكتِّفون يدى ويضعون على فمى الكمامات، ويقطعون رقبتى فى صمت، ثم يغادرون ويغلقون الباب دون أن يدرى الجيران بفعلتهم.

بالأمس رأيت أحد المخبرين السريين الذى يعمل سائقًا للميكروباص، يتربص بخطواتى، وحين جلست على المقهى جلس بجوارى، وقال لى وسط الرواد: " إزيك يا أستاذ".

كانت عيونه ونبرة صوته تؤكد أن ساعتى اقتربت، لكنه لن يقوم بتدابير جريمة الاغتيال بنفسه، هو فقط يرسل الإشارات والرسائل التى تبلغهم عن مكانى.

لا أعتقد أنهم سيتركوننى كثيرًا أسير بمفردى حرًا فى الشارع، نعم يجهزون العُدَّة الآن لاصطيادى، دون أن يحس أحد من جيرانى باختفائى.

لكن الرسائل التى وصلتنى من جماعة الملتحين تؤكد هى الأخرى أن رقبتى مطلوبة، فحين ترجلت بالأمس شاهدت بعضهم وهو يسير ورائى خارجًا من المسجد القبلى، وسألنى فجأة: " الساعة كام يا أستاذ؟ ".

توقف لسانى، ثم أخرجت الموبايل ونظرت فيه، وقلت: " الساعة تسعة ".

وقبل أن أستكمل سيرى، سمعت أحدهم يقول بسخرية: " أنت متأكد؟! " فرددت برعب: " أيوة "، كأننى سمعته يقول بتهكم: " اخترت ساعتك يا كافر!! "

لا أدرى إلى أين أتجه بخطواتى الآن، أخاف أن أذهب إلى البيت كى لا يتعقبونى فيقطعون رقبتى ورقاب أولادى.

أخاف الذهاب إلى أحد إخوتى حتى لا أبليهم بمصائبى، لن أجلس بعد الآن على الكراسى التى بمقدمة المقهى حتى لا يرمينى أحدهم بالرصاص من على الموتوسيكل ويفر هاربًا.

حين جال بخاطرى الذهاب إلى شقة صديقتى، خفت عليها من جنونهم، فيمكنهم قتلها هى الأخرى، بدعوى ممارستها الزنا مع كافر مثلى.

الشارع يتحول إلى بؤرة للرعب، المارة يتحولون إلى قُطَّاع طرق ومخبرين وأتباع لجماعة الملتحين التى ترغب فى قطع لسانى.

حاولت تخطى إحدى القطط التى تنام وسط الشارع، نظرت فى عيونها فوجدتها نائمة، فعبرت جثتها قائلاً لنفسى: " ماذا يأخذون من موتى؟ "

لا تهم حياتى، المهم هو وقف الجنون الذى طال روحى، دخلت المطعم، وقلت للفوال بصوت عالٍ: "بجنيه فول، وجنيه طعمية، وجنيه عيش "، فرد بحب: "مالك يا أستاذ ملاك؟ "

لم ألتفت لصوته وأعطيته الجنيهات الفضية، وقررت الذهاب للنهر.

جلست على الشاطئ الذى تمتلئ حديقته بالباعة والرواد، وفتحت الكيس وحاولت تناول الطعام، لكن بائع الشاى الذى وضع كوب الماء البارد أمامى وابتسم فى وجهى أعادنى مرة أخرى إلى الحياة.

نظرت لمراكب الصيادين وبائعى الترمس والفول السودانى والحمص وابتهج وجهى ، وطلبت من البائع كوب شاى وأعطيته الفول والطعمية، ونزلت للنهر استمتع بالموج الساكن

" **حريق** "

ما الذى دعاك أن تتحدث مع زوجتك وأولادك فيما يجرى فى البلاد؟ ما الذى حرك لسانك على المقهى وجعلك تنطق وتقول: " أنجاس وخونة؟ "

ما الذى ذكَّرهم مرة أخرى بوجهى، وجعلهم يقلِّبون فى دفاترهم القديمة كى يبحثوا عن أثرى؟!

عندما دخل الحلاق إلى مكتبى، وقال إن خمسة أشخاص سألوه بالأمس على مكان مكتبى، أصابنى الرعب وسألته بهدوء متظاهرًا بالثبات: " هل تعرفهم؟ "

رد باقتضاب: " منظرهم غريب وفى ملامحهم ثأر وغباء، وبعضهم كان ملتحيًا ".

واستكمل مبرئًا نفسه: " قلت لهم لا أعرف مكانه، مكتبه بالشارع، لكنى لا أعرفه ".

بعد خروجه مرعوبًا تسحبت إلى باب الشقة وأغلقته، قائلاً لنفسى: " هل مازالوا يتذكرون شكلى؟ ولماذا يطاردوننى الآن ويبحثون عنى ؟ "

مر شريط الأمس أمامى كفيلم، نعم جلست على المقهى، وقلت رأيى فى ادبابات والملتحين والأراجوزات ، وتجرأت وذهبت إلى مبنى الشرطة المحترق، لأشاهد الدخان والمعركة الطاحنة بين الملتحين والفلول.

لكن لم أتذكر أننى تفوهت بكلمة أمام القسم، لكن كاميراتهم المعلقة بكل مكان رصدت تحركاتى ، نعم، نعم بالأمس تحدثت مع سائق توكتوك، وقلت إن كلا المتعاركين لصوص وخونة ، ويستخدموننا فى صراعاتهم ولا يؤمن أحدهما بنا.

نظر السائق إلىَّ متهكمًا مؤكدًا أن الملتحين هم سبب الخراب، فصمت لسانى حين تاكدت من هويته.

أيجوز أننى تحدثت بالأمس لآخرين خلاف هؤلاء؟

ومن أوشى للمخابرات بآرائى التى تلفظت بها ساعة غضب؟

لماذا إذن يتعقبوننى ويبلغوننى أولا بأول برسائلهم المرعبة التى لا تنتهى؟

هل يجب الهروب إلى خارج البلاد؟ لكنهم سيعرفون مكانى ويطلقون الرصاص الغادر في رأسى ، وهناك في الغربه لن أجد أحدًا من الجيران يرفع جثتى اويبلغ أهلى بخبر قتلى ليدفنونى قبل تعفن جثتى.

المشاهد تأتى وتذهب، وعقلى مازال متقدًا، هل يجب الاتصال بصديقى الصحفى لإبلاغه برسالة الحلاق ومطاردة الأجهزة لتحركاتى، هل يمكنه نشر رسائل تهديدهم؟ هل يمكن لمثل هذه البلاغات أن توقف ملاحقاتهم؟

أستعيد الآن المكالمات التليفونية التى أجريتها، نعم قلت رأيى لأكثر من صديق فى التليفون، يا ألله كان يجب أغلاق فمى وتليفونى ولا أدلى لأحد برأيى!!

يجب تعاملي منذ تلك اللحظة على أننى شخص ميت.

لكننى ما زلت حيًا، ومازالت الموسيقا والأغانى تصدح فى اللاب الذى تركه صديقٍ هرب من البلاد منذ عدة شهور ، ومازالت الوردة الحمراء الاصطناعية التى أهدتها لى صديقتى فى عيد ميلادى الخمسين تقبع أمامى على المكتب.

ومازالت القطة البرية تدخل مكتبى كل يوم و تنام على كرسى الأنتريه أمامى فى أمان، ومازال حودة ابن الجيران يدخل حجرتي بألعابه ويسألنى فى براءة: " عمو، الساعة كام؟! "

رغم مطاردتهم فمازال فى الفضاء هواء أتنفسه، لا، لن أستسلم لتهديداتهم وسوف أدخل الحمام لأتبول على الجميع، وسأذهب كل يوم إلى المقهى وأدخن الشيشة، وسيظل باب مكتبى مفتوحًا حتى لا أموت من الخنقة!!

" جرح "

فى هذا اليوم دخلوا المكتب، حاملين فى أياديهم السواطير والسنج ، وقال أكبرهم بعد إغلاق باب الشقة: " سوف نقطع يديك حتى لا تستطيع الكتابة ".

حين هَمَمْتُ من هول المفاجأة أن أصرخ، انطلقت الرصاصة لتخترق كبدى التالفة.

لم أكن أصدق ما جرى فكيف يمكن لى أن أحيا وسط هذا الرعب؟!

أضع يدى مكان الجرح، وبيدى الأخرى أرفع جسدى محاولا الاتكاء على المكتب، كى أصل إلى باب الشقة.

لم أتمكن من صعود درجات السلم الذى يعلو باب مكتبى ، فارتميتُ صامتًا عند مدخل الباب لعل أحد المارة يشم رائحة الدم فينجدنى.

فوجئت بنفسى على سرير بالٍ بمستشفى ميرى، وشاهدت وجوه إخوتى وأبنائى تلتف من حولى.

الجميع كان يبكى، وينتظر مرور الدم إلى عروقى مرة ثانية، لم أندهش لوجودهم وسألتهم عما جرى.

حكوا قصصًا وردَّدوها عن كيفية نقلى من باب الشقة إلى المستشفى، ليلحقنى المسعفون بأنابيب الأكسجين والعمليات الجراحية، ليطهروا الجرح من الرصاص الذى ملأ أعماقى بالسواد، وفجأة أعادوا أسئلتهم فى بلاهة: " من هؤلاء؟ "

لم يكن فى جعبتى رد، فبادلتهم الصمت، وعندما نطق لسانى، طلبت منهم التحقق من المحضر والشهود الذين رصدوا تحركات القتلة فى الحارة.

غبت عنهم محاولا البحث فى اليوم السابق على الحادثة عن اي أمارة تدل على قرب مقتلى.

عندم تيقظت لم يكن أحد بجوار السرير، فتسرب الخوف مرة أخرى إلى أعماقى، وعدتُ خائفًا من حضورهم مرة أخرى.

لم يلتئم جرحي ومع ذلك قررتمغادرة المستفي قبل مجيئهم، فمن يدرى هذه المرة؟ إذ يمكنهم قتلى برصاص مصبوب.

عندما قابلنى الدكتور بالطرقة خفت أن يكون أحد القتلة متخفيًا فى زى الطبيب، فوقفت بجوار الحائط فى انتظار أن يمر بعيدًا عنى، لكنه اقترب منى، محاولاً الاطمئنان على الجرح، فصرخت بأعلى صوتى " جاى... الحقونى ".

" اعتصام "

لست صحفيًا كى أنقل للناس أخبار المواقع والمظاهرات، وأرصد عدد القتلى والمصابين فى حياد، لست مذيعًا فضائيًا أتقاضى الملايين لأنقل رؤية أصحاب القناة بحرفية لا تخل بميثاق الشرف المهني.

أنا مواطن لى قلب يمتلئ بالدموع ويخفق بنبضات الحزن، لرؤيته دماء البشر المتناثرة على الإسفلت.

أتذكر الآن هذه الأيام البعيدة مندهشًا من دورى فى الركض والعدو خلف عيون الجميع، ولماذا كنت أبحث فى عيون الجثث المحروقة عن اثار حياة؟ ولماذا وقفت قرب الميدان صامتًا مذهولا من هول قنابل الغاز ورصاصات البنادق؟ "

نعم كنت هناك وشاهدت آلاف البشر يحيطون بالجامع ويهتفون بسقوط الانقلابيين.

رفعوا صور الشهداء والمقتولين ولوحوا بأصابعهم الأربعة وحين سألت أحدهم، لماذا لا يرفعون أصابعهم الخمسة ؟ قال أحد المارة بدهشة: " يذكِّروننا بخطايا رابعة ".

نعم سمعت عن طُهر هذه المرأة التى كانت غانية، ثم اختبأت فى كهف صغير وتفرغت للعبادة، وبعد أن كانت ملاذًا لكل أمراء الدنيا لترويهم الشهد بسخاء من شفتيها وقلبها وتدفئهم برحيق الحب، تحولت إلى قبلة للعاشقين والزاهدين فى الحب الإلهى.

حينما تيقن العالم من نبل ضميرها أقاموا لها المساجد احتفاءً بإخلاصها فى حب الله.

ولهذا السبب قام المتظاهرون بالاعتصام فى مسجدها للحماية، لكن قذائف ورصاص الطغاة لا تعرف معنى لهذه الخزعبلات، فالاعتصام يجب فضُّه الآن.

دخلوا فى ظلمة الليل إلى الخيام، بعد أن ادعوا أمام الشاشات أنهم يقومون بتنفيذ الأوامر وبأن صوت المعتصمين يوقف عجلة الإنتاج ويقوض أركان النظام!!

أحاطوهم بمئات الدبابات والمجنزرات ونزل الجنود محملين بالبنادق وأطلقوا مرة واحدة غازهم المميت على الأجساد المنهكة لتترنح من الغاز، طالبة الرحمة.

لم يكن هناك طريق للخروج سوى الممر الآمن الذى تحيطه العساكر المبندقة، انطلقت الجموع المخنوقة هاربة من الحريق لتصطادهم البنادق فى سهولة، بينما انبرت قوات مدنية للقبض على الجرحي الذين تمكنو من عبور طلقات الرصاص .

مات الآلاف وسط أعمدة القديسة رابعة ودهسوا المئات الذين اختبأوا بمستشفايتها وتحولوا لعجينة تحت اقدام العسكر الذين تقدمتهم الدبابات لتدهس جثثهم فى هدوء .

خرج بعض الناجين من المذبحة، فقرروا قطع أصبعهم الخامسة، لتبقى الأصابع الأربعة دلالة على مذبحة العدوية.

" خرابة "

هنا مقر البلاهة والفرجة على اليأس ، هنا بلاد الصمت على الغدر والتشفى والغل.

فى كل شارع وحى وبيت صورة مكررة ورسالة مُعلَّقة على الجدران، تقول لك: " لا يوجد أمل فى خلاصك، أنت مربوط فى الساقية، وليس أمامك إلا الدوران حسب ما يرغب الجلاد ".

يمكنك أكتشاف وصاياهم التى يعلنونهاكل يوم بقنواتهم التلفزيونية ، ولا يحتاج منك الأمر الا عشر دقائق أمام أية قناة لتعرف أن الطريق الوحيد لنجاتك هو طريقهم.

يفاجئك الضيف الخبير فى الاستنطاع بضرورة الانصياع لأوامر الضباط حتى يدور المكن، ولا تفرمك عجلات القطار.

تنظر إليك زوجتك فى شماتة لتدلل على خيبتك، لأنك لم ترفعها فى السماء، ولم تأخذ لها شقة فى حى فخم، ولن ترث بموتك إلا معاش النقابة الضئيل الذى لا يكاد يكفى ثمن العلاج.

يندهش أولادك فى بلاهة من مستقبلك المُخزى الذى صنعته بنفسك، ليلقوا اللوم على روحك الضعيفة التى لم تتمكن من ركوب الموجة والسباحة مع التيار، لتصبح أحد القوادين الذين يعرفون أنهم كانوا أصدقاءك.

فتنظر للحائط مبتسمًا لتقرأ الحكمة التى تفهمها:" هنا مقر البلادة ، ولا أمل فى العبور إلى جسر النجاة، لا أمل فى تخطى هذه الحواجز التى صنعتها باسم الحفاظ على السمعة، لتنال فى النهاية جزاءك المستحق.

حتى أهلك الذين أملوا فى رفعهم بعلامك ، يهربون الآن فى الطرقات ولا يتمنون رؤية وجهك القاسى، لأنك لم تساعدهم فى توظيف أبنائهم أو التوسط لهم عند كبار الضباط ليلتحقوا بالكليات الحربية.

ولأنك رفضت أن تكون قوادًا يجب عليك قبول دور المواطن الشريف دون أسى، ويجب ألا تنظر فى شاشة التلفزيون مرة أخرى حتى لا تشاهد أصدقاءك الذين تفخر بمعرفتهم، وقد تحولوا إلى دجالين، يجب عليك الصمت حتى لا تفضحك الهزيمة .

لا تستاء مرة أخرى من مصيرك، لأنك جربت حياة المدعين وفررت هاربًا من أسوارهم، كنت تأمل أن تجد الأهل والأصدقاء فى استقبالك ممتنين لعودتك، لكنك رجعت إلى نفس المكان الذى غادرته ووجدته كما كان دائمًا، مملوءًا بالوسخ والصنن، ومع ذلك يجب عليك الفرح لأنك نجوت من الأَسْر ، وعدت مرة أخرى لأصلك ورائحتك التى تعشقها.

" محرقة "

فى ليلة كهذه الليلة، اختبأ المئات فى الجامع خوفًا من الموت وحظر التجوال، جروا جميعًا داخل رحابه رعبًا من دخان القنابل ورصاص البلطجية وأغلقوا الأبواب، وشعروا للحظة بأنهم فى حماية رب العرش.

كان اليوم رهيبًا وطويلا، ضباط الجيش والشرطة يلاحقون المتظاهرين فى الشوارع ويطلقون عليهم الرصاص.

جثث العشرات تملأ الشوارع وأنا أجرى من رصيف إلى جدار، لم يكن فى صدرى أى ألم أو إحساس بالغدر، لأن المقتولين كما يقول التلفزيون خونة وملتحين.

المرشدون السريون الملقبون بالبلطجية يحملون السيوف والبنادق ويطلقون النار فى الصدور ومن خلفهم يسير الجنود والمشاة والمجنزرات ويطلقون الغاز على الجميع.

أرادوا أن يُلقِّنوا الجميع درسًا لن ينسوه، فأحرقوا المحلات وفروشات الباعة والمطاعم وبنك الدم، ومن فوق البنايات العالية أطلق قناصوهم رصاص بنادقهم فى رءوس وعيون المحتجين.

لا أحد سينجو من المحرقة، ولم يكن إلا أبواب المسجد المفتوحة، فانطلق جسدى مع المئات لندخل فى رحاب الله، علَّنا نحصل على الحماية.

داخل البهو براحٌ غريبٌ، ملأ روحى بالسلام، فاستسلمتُ بإيمانٍ لمصيرى، وغفوتُ للحظة رغم وقوفى على أقدامى داخل الحشد الرهيب لأشاهد ملائكة الرحمة بملابسها البيضاء تتطاير فوقنا.

عندما ملأ الهياج والصراخ ساحات الجامع، جلست بجوار الحائط أستريح من مطاردة اليوم الغريبة والأصوات التى تتحدث فى وقت واحد، دون انقطاع، عن المذابح التى ملأت الشوارع المحيطة.

فى هذا اليوم كنت عائدًا من عملى فى الورشة التى تفتح أبوابها كل يوم بشارع فم البحر. مستمتعا بعملي في وضع الحديد بالمخراط وصنع قطع غيار المكن، كنا ملاذًا لكل أصحاب المحلات والمشترين والسماسرة الذين يملأون الشارع بالضجيج.

لم يكن أحد يعرفنى منهم رغم أن يدى هى التى تأخذ مقاسات قطع الغيار وتقوم بإعادة تشغيل المكن التالف.

خرجت فى هذا اليوم دون اهتمام بالصرخات المطالبة بضرورة العودة إلى منازلنا قبل انتهاء موعد الحظر، كنت أعلم أن العقوبة شديدة لمن يخالف قرار منع التجوال.

عندما دقت السادسة، ارتديت ملابسى وخرجت مسرعًا إلى الشارع الذى لم أشاهده أبدًا فى حياتى بهذا الصخب والزحام.

آلاف البشر من كل صنف ولون تجرى دون هوية بالاتجاهات الأربعة، ، وتحمل الطوب والعصى والبنادق والسنج، وتبحث عن مخرج آمن يضمن استمرارهم فى الحياة.

جريت مسرعًا تجاه محطة الباص التى تقع أمام المسجد، وكأننى وقعت فى فخ، فلم يكن هناك سائقو ميكروباص أو منادون، فقط الدخان وصوت طلقات الرصاص وهدير الناس من كل اتجاه.

اتجهت مع الجموع إلى باب المسجد، كى أنجو من المحرقة، ودخلت الجامع آملاً فى السلامة.

سمعت الجميع يقول: " سنبيت ليلتنا فى حماية رب العالمين حتى انتهاء الحظر، ونعود إلى منازلنا في الصباح ".

تليفونى تم سرقته فى الهوجة، فعدتُ معزولاً عن أسرتى، وتصورت أنهم يبحثون الآن عنى فى المستشفيات اوأقسام البوليس، وتخيلتُ تجمع الأهل والجيران فى شقتى الضيقة يواسون زوجتى وأبنائى.

رأيت وجوه الجميع تحاول البحث فى دفاترها القديمة عن الأكابر ليساعدوهم فى إيجاد اسمي بسجلات الأحياء أو الأموات، لم يكن يهم كل ذلك، المهم ان اعود

امتلأت الساحة الواسعة أمام المنبر العالى بآلاف البشر، فجلست على الأرض أستريح من خيالاتى، لا مكان لجسدى المُنهك، ولا يمكننى تذوق طعم النوم لأن البلطجية دخلوا علينا ليعلنوا فى نذالة بأن الدبابات سوف تهدم المسجد على من فيه، وتعجن الجثث، ولن يهرب أحد من المذبحة.

شاهدت امرأة عجوزًا تجلس بجوارى تبكى على بضائعها المحروقة ورصيدها الوحيد فى الحياة، وقالت لتواسى نفسها: " سرقوا نقودى وحرقوا فرشتى، فمن يطعمنى بعد اليوم؟ "

تحاور الشباب بجوارى وهم ينظرون من الفتحات الضيقة للشبابيك المغلقة على جيوش البلطجية والضباط الذين يطلقون الرصاص على جدران المسجد ليعلنوا فى صلابة ومجد، موت مشاعرنا فى بحر الخوف.

للحظة تمنيت أن يفتحوا الباب ويقتلونا ويريحونا من تدمير أعصابنا بسبب الرعب القابع فى الجامع ومحيطه.

مشاهد لا يمكن أن أنساها عن ذكرى هذه الليلة، لكن الحقيقة تقال، إن الضباط وقفوا ظهر اليوم التالى فى صفين ليحمونا من جيوش البلطجية التى كانت مُسلَّحة بالسِّنج، وشجَّت وجه كل واحد فينا، غير عابئة بأسلحة الجنود أو وجوههم المبتسمة فى رضا.

" مقصلة "

الأخبار التى سمعتها فى الحى عن مقتل المئات كفيلة بأنزوى فى ركن الحجرة، صامتًا.

الجميع هلل بقوة شرطتنا وجيشنا الذى تمكن من مواجهة المخربين الذين رغبوا فى احتلال المساجد وحرق الكنائس.

لكن هيبة دولتنا ودورها الكبير فى صنع التاريخ جعل قادة الجيوش تجتمع وتحش بطونهم، وتسحب المعتصمين كالبغايا إلى سيارات الترحيلات لتأخذهم بعيدًا فى الصحراء وتلقى عليهم جراكن البنزين وتحرق جثثهم.

لا يهم رائحة الدخان التى تطايرت من أجسادهم ، لا تهم أحلامهم التى ماتت معهم أو ذكرياتهم المؤلمة عن بشرٍ فقدو الحواس ، إذ لا يهم المحروقين إلا آلام النار التى نشبت فى أجسادهم وجعلتهم يهرولون كالسبايا داخل المدفن الضيق الذى أطلقوا عليه "عربة الترحيلات ".

غرفتْ زوجتى طبق المسقعة، وسخَّنتْ رغيف خبز ، ووضعتهما على الترابيزة أمام التلفزيون كى أتناول عشائى.

الشاشة تُظهر وجوه المسحولين بعربة الترحيلات وأجسادهم التى تمكن مصور القناة من التقاطها بأمر المخابرات، لتذيعها قناة الحكومة لتبلغ المتمردين الرافضين للانقلاب مصيرهم

توقفت الصورة على وجوه أحد المحروقين، فوقفت اللقمة فى حلقى، نعم هذا وجه " ريان " صديقى، سارت الكاميرا بعيدًا عن وجهه واستمرت فى نقل الملامح المشوهة للوجوه الأخرى.

أعلنت الداخلية بفخر حسب بيان المذيعة أنها اضطرت لإلقاء قنابل الغاز فى السيارة لوقف محاولة المتمردين تكسير الأبواب والهروب من الجحيم ،ورفض مأمور السجن حال وصولهم استلامهم لعدم وجود أماكن بالزنازين فظلوا بصندوق الترحيلات حتي ماتو خنقًا.

لا يهم كل ذلك، ما يهمنى هو الوجه المشوه لصديقى " ريان "، حاولتُ بلع اللقمة التى مازالت تقف فى حلقى، لكنها امتنعت عن المرور، وحين توقف نبضى، صرخت فى صمت، فجاءت زوجتى وضربتنى على ظهرى بقوة، فلفظت اللقمة على الأرض وعادت أنفاسى إلى حلقى.

وسألتنى فى بلاهة: " إيه اللى حصل يا خوى؟ "، لم أرد، ولبست حذائى وخرجت من المنزل، واتصلت بوالده الذى بلغنى بأنه عرف الخبر، وعندما انهمرتْ دموعه فى التليفون أغلقتُ السماعة.

كان معى منذ يومين يبحث عن سيناريو لفيلمه الجديد الذى أطلق عليه اسم "المقصلة" كان يرغب فى أن يصور وجوه بشر حقيقيين عانوا من الذبح، وتمنى تسجيل مشاهد لنساء وأطفال تعرضوا للسحل وقبلوا الموت بديلا عن التعذيب الذى مارسه الزبانية على أجسادهم.

كان يأمل بأن يلقانى اليوم بالمقهى لأُعرِّفه على الضحايا الذين عاشوا أيامًا سوداء فى الميدان، لكن الحرق والخنق كان جزاؤه.

" **الثلاجة** "

طوال التاريخ الطويل ظلت كلمة المشرحة فى بلادى رمزًا للقتلة والسفاحين.

فمن يقبل أن يظل جسد ابنه مركونًا على أَسِرَّتها بين عيون التمرجية الجاحظة وقلوبهم الميتة.

لم تطأ قدمي أرضها ولو لمرة واحدة، لكن حين امتلأ الميدان القريب بالجثث المدهوسة، وشاهدتُ الدماء الغزيرة تملأ الإسفلت تحت عجل السيارات أُصِبت بالغمة.

فى هذا اليوم وضع الناس بقايا الأجساد المفعوصة فى سيارات الإسعاف التى جرت مسرعة وسط الشوارع بصفارتها المعهودة لتنقل لحومهم إلى المشرحة، تنفيذًا للتعليمات التى أمرت بتنظيف الشوارع من أجساد الخونة.

لم تتمكن الثلاجة العاطلة نظرًا للحجم الهائل للجثث من إخفاء دماء المدهوسين الذين اعتصموا بحبل الله وتجمعوا معتقدين عودة الدنيا إلى عصور الإسلام الأولى.

فى هذا اليوم كنت أجلس على المقهى المقابل للباب الذى كُتِب أعلاه " مشرحة زينهم".

ثار الفضول والرعب بداخلى حين رأيتُ السيارات تقف فى طوابير أمام الباب ويصرخ سائقوها فى الجميع كى يفرغوا حمولتهم بسرعة ليعودوا إلى الميدان لينقلوا بقايا البشر الذين لوثت رائحتهم النتنة سماء المدينة.

فى هذا الوقت تطوع عدد من أصحاب محلات الجزارة والبقالة والحدادة المنتشرين بالشارع ليساعدوا التمرجية فى نقل الجثث إلى داخل الثلاجة.

عند ذلك رمقنى صاحب القهوة بنظرة عتاب كى أقوم وأساعد ، دخلت دون إرادتى من باب الثلاجة، وحملتُ الجثث المفعوصة إلى داخلها وسط دعاء وتعديد أهالى الموتى.

الجو بارد هنا رغم حرارة الجو المرتفعة بالخارج، ومع ذلك اقشعر بدنى وأنا أغوط فى المياه المخلوطة بالدماء التى ملأت الأرضية، حاملا بقايا البشر، اختفت ملامح وجوهم بسبب الدم والمخاط الذى غطى عيونهم.

كنا نضع الجثث فوق بعضها على أَسِرَّة طويلة بسبب قلة الأماكن، وبينما غسل آخرون مئات الجثث ونظفوها من الدمار ولفوها فى قماش أبيض كأنهم ملائكة.

الأَسِرَّة غرقت عن آخرها فى الدماء ولم يعد عليها مكان فارغ لجثث أخرى، فتطوع أحد الجزارين بتنظيف الأرضية ورص المدهوسين فوق بعضهم فى الزوايا كأنهم ألواح خشبية.

امتلأت الأرضية بلحوم بقايا البشر الميتة، فاتصل رئيس المشرحة بالحاكم العسكرى فأرسل فى الحال ثلاجة جاهزة للتغسيل لحفظ الأجساد من العفن، ومع ذلك ظلت الجثامين تنضح بروائح كريهة، كأنها جيف حيوانات مسعورة.

جرى أحد المتطوعين ليشعل أعواد البخور ويعلقها على الجدران، وقام آخرون برش النفتالين على الأرضية لوقف انبعاث الروائح الكريهة فى المناطق المجاورة.

طاولات التشريح والتغسيل تئن وتزيق من كثرة الأعداد التى تبارى التمرجية ليغسلوهم جماعات.

نسيتُ زوجتى وأبنائى الذين كانوا يتمنون الخروج للحديقة لتناول الغذاء قبل بداية ساعات حظر التجول، لكننى تذكرتُ فجأة صوت جدى وهو يوبخ والدى الذى رفض الخروج من منزله الذى يؤوى إخوته العشرة، قائلا فى نفاذ صبر: " المشرحة مش ناقصة قُتَلَه يا بديع!! "

أعيتنى يدى وأحسست بالألم يمزق عظامى فخرجت للشارع لشم هواء مختلف عن هواء الميتي ، ففوجئت بآلاف النساء والرجال يصرخن ويعددن، طالبين استلام رفات أبنائهم حتى ولو مدهوسة.

تطوع فريق من الأهالى المحيطين بالمبنى للدخول معهم للتعرف على ذويهم والخروج ببقايا لحومهم، بشرط توقيعهم على إقرار بأن أبناءهم ماتوا غرقى أو منتحرين أو فى حوادث على الطرق السريعة.

بسبب هذا الاقتراح العبقرى تم إفساح مكان للمدهوسين الجدد الذين تنقلهم سيارات الإسعاف من الميدان فى ضرورة وشهامة.

الشيء الغريب أننى سمعت مندوبة حقوق الإنسان وهي تتحدث من هاتفها للصحافة، مطالبة رئيس الحكومة والجيش العظيم بضرورة التحرك لتوفير عدد كافٍ من ثلاجات الموتى، حرصًا على حقوقهم فى الغسل والدفن!!

" اغتيال "

عندما انتهتِ الوردية فى مقهى العريش، طلبتُ من صاحبها الأعرابى أن أدخل الخيمة التى تقع خلف المقهى لأنام ، لكنه طلب منى الاستمرار بالعمل لأن العشرات من الجنود الذين ينتظرون إنهاء حظر التجوال، سوف يبيتون على الكراسى حتى حلول الصباح.

خمسة وعشرين شابًا أنهوا خدمتهم العسكرية فى المدينة وكانو يحرسون الفنادق ومبانى المحافظة وقسم الشرطة ، انتظروا بفارغ الصبر ، ليعودوا إلى ديارهم ويلتحقوا بعائلاتهم ويستمتعوا بموسم الحصاد وشاى العصارى تحت أشجار الصفصاف الوارفة.

بتاريخ الأمس غنوا كالأطفال لانتهاء خدمتهم الوطنية واستلامهم المعافاة " قدوة حسنة".

حرسهم الله من غدر مغاوير الجبل والمطاريد طوال الليالى الطويلة الماضية، لذلك كان وجودهم كفيلا بسعادتى، لمرافقتهم يومهم الأخير فى الخدمة.

انبرى " حسان " ابن قرية ميت الفل فى الدق على الكرسى، ليلعب بقلوب زملائه على واحدة ونص، أحاطه ثلاثة من زملائه وظلوا يتراقصون وسط الدائرة الواسعة التى ملأت فراغ المقهى على أنغام الطبلة الساحرة.

وحين انتهى استكمل " حسن الصعيدى " الغناء بترديد المواويل:

يا ليل يا عين ، يا صبر رُحت فين ، والغُلب مولى.

والضهر لما انقسم ، فقرى صَبَح غالى.

قاطعه " ضاحى " مستكملا الغناء :

البنت زى الغزالة ، واقفة بِتِتْعَايق ، والنور مالى عينها ، يا نهر يا مفارق

طلبوا الشاى والمِعَسِّل وأغلق المعلم التلفزيون وهو ينتشى معهم بليلة لن تنساها كراسى المقهى التى لم تعرف إلا العربان الرُحَّل المسافرين إلى غزة والعائدين منها.

لكن هذه الوجوه الشابة أعادت الحياة فى رحاب المقهى، خاصة حين صدح صوت "مخاوى " بترانيم الشيخ " ، قائلاً:

حُب النبى نور على جبينى، والشط حِلم الغلابة والزهر مِجَفِّينى.

إن كنت صياد يا وله ، طب ليه بتكرينى ، روح الصبية الأميرة ، بكره هتشفينى.

دقت الساعة السادسة لتعلن انتهاء ساعات حظر التجوال، ودار الهمس بينهم وشعرت بأشتياقهم إلى أحضان أمهاتهم اللائى ينتظرن عودتهم.

قال " رمضان " ابن كفر إنه سوف يذهب للحقل وينام عشرة أيام متواصلة على كوم السباخ حتى ينسى هذة الأيام القاسية.

جاء الباص وتسلم المعلم الجنيهات القليلة التى يخفونها فى محافظهم وصعدوا ليجلسوا على الكراسى التالفة، واتفق معهم السائق على الأجرة، و أصر على استلام أجرته كاملة قبل انطلاقه ، رغم اندهاشهم ، لكنهم سلموه النقود ورحلوا مودعين المقهي بالغناء والأناشيد.

بعد وداعهم ناديتُ المعلم الذى كان صوته يُنذر بالخطر لتسليمه العهدة كى أرحل إلى منامتى خلف المقهى ، أهملنى وفتح التلفزيون ليصرخ المذيع معلنا الحداد، وانطلق صوته ليخبرنا عن مقتل خمسة وعشرين جنديًا قرب مقهتنا.

" سلام "

أعلنتِ الكنيسة إنذار الخطر، واختار القس خمسين شابًا يعرفهم جيدًا، ليحرسوا الأسوار ، واتصل بالقسم ولم يرد المأمور، كرر اتصاله فرد عليه رئيس المباحث، قائلا: " احرسوها بأنفسكم يا مقدس ".

لم يتعود القس على حمل سلاح طوال حياته الطويلة، لكنه يتذكر أيام تجنيده بالجيش وتدريبه الطويل على كل أنواع الأسلحة الخفيفة.

لكن مر علي هذه الأيام أكثر من ثلاثين عامًا، فكيف يستعيدها لينقل للشباب روح العزيمة؟ وكيف يوائم بين السلام الذى يدعون إليه والقتال من أجل حماية الكنيسة؟

فى تلك الليلة ملأ القلق والحزن روحه وهو يعطى العِظَة، طالبًا من شعب الكنيسة التعامل بحذر وتحمل الكرب حتى تمر الأيام السوداء.

انتهى من الوصايا العشر وطلب من الشباب المكوث بالكنيسة بعد ساعات الحظر، وقسَّمهم إلى خمس فرق، وطلب من كل فرقة أن تسهر على حراسة أسوار الكنيسة مدة ساعتين ثم تستريح لتقوم فرقة أخرى باستكمال مهمة الحماية.

حين هطل الليل دار القس على الشباب ليخفف رعبهم من صوت الرصاص والانفجارات التى طالت الحوارى والشوارع المحيطة ، صلى للرب كى يغفر للجميع ويرحم عباده الظالمين، وحين غفت عينه شاهد الملتحين يقتلون الشباب ويجرُّون جثثهم إلى باحة الصلاة ويحرقون الكنيسة.

لم يكتفوا بحرق الصليب، فألقوا البنزين على جدران بيت الرب والمكتبة، وأحرقوا كل ما فيها وتركوا القس عاريًا، يوجِّه شعب الكنيسة دون ملابس تدارى عورته.

قام من غفوته وحاول ملء روحه بالسلام، طاردًا وجوه الملتحين والبلطجية من روحه، وحين دخل عليه " مينا " بكوب الشاى الساخن، كاد قلبه ينفطر لرؤية الوجه الملائكى، وسأله بقلق عن الأحوال، فرد الشاب عليه قائلاً: " لا تقلق يا بونا ".

حاول اخفاء رعبه، فخرج وسط الشباب الذين أشعلوا بعض الأخشاب وجلسوا يتدفأون حولها، عندما أحس بالخوف على حياتهم، تمنى أن يأمرهم بالرحيل إلى منازلهم، لكن حظر التجوال يمنعه من تنفيذ رغبته.

الشاب المفتون بالمهمة الجديدة، جلس حول النار يحكى عن طموحه فى العمل والحب، والقس الذى لم يعرف طوال حياته إلا الدعوة للسلام وجد نفسه قائدًا لفرقة حربية تتجهز للمقاومة وتتسلح بالغناء.

رغم الحلم الكئيب الذى سيطر على عقله، لكنه حاول أن ينام، وعندما انتصف الليل أيقظه صوت الرصاص، فتوقف نبضه، وقام من منامته مترجلا إلى ساحة الكنيسة وأسوارها، فشاهد الوجوه السواداء الملثمة ترفع اسلحتها وتقتل عشرين شابًا، وتكتف الفتيات من أقدامهن وأياديهن ويحرقن وجوههن، ولم يكتفوا بذلك فدخلوا الساحة الطاهرة وباحة الدير وتبولوا على الصليب وعلقو القس في هلب السقف.

" **صمت** "

حينما أعود ولا أجدُكِ جوارى، أعرف أننى نسيت روحى فى الجانب الآخر، فهل إذا عُدتِ، يعود الجنود المذبوحون إلى قراهم وأحضان أمهاتهم اللائى ينتظرن حضورهم ؟ وهل إذا عُدتِ سيعود الشباب المخنوقون غدرًا بدخان المجرمين؟

عندما تعودين إلى جوارى، لن تجدى إلا جثة هامدة تَسْجِدِى الرحمة من الجلادين الذين قاموا بالغدر بأرواح الجميع.

كلهم خدعوكِ وتركوكِ أسيرة مشهد الوداع، تجمعوا حولك فى الميدان وطالبوكِ بالعفو.

سجدوا على كيعانهم وجباههم وطالبوكِ بالعودة وانتظار المدد، رغم الدم الذى أغرق ملابسك والنحيب الذى ملأ الدنيا، لكنَّ براءتك فرضت عليكِ الصدق والإخلاص فغادرتِ حزينة لحالك، مفزوعة من اعترافهم.

وفى طريق عودتكِ تذكرتِ المآسى التى طالت حياتك، لم يخفف عنكِ إلا صوت الصياد الذى ملأت روحه الطيبة مياه النهر وهو يلوح بيديه لقلبك الطاهر.

تركتِهم وعدتِ إلى منزلكِ الضيق وحيك الملوث، وانتظرتِ تنفيذ وعودهم، ومرت الأيام والشهور والسنون ونسوا دموعك، وتفرغوا من جديد للنهب.

وخرجت أبواقهم يتراقصون فى الشاشات، وحينما يأتى ذكرك فى أسئلة الجمهور الذى احتشد حول الميكرفون لتظهر صورته، يتنحنحون ويعتذرون ويطالبونك بالانتظار، كم مرة نكسوا بوعودهم؟، كم مرة تركوكِ جائعة وعطشانة لرؤية مجرد أمل فى عيون شخص واحد، يرفع الحمول عن أكتافك!

أنكروكِ فى النهاية وساروا فى طريقهم المعهود، وكأنَّ منزلك الضيق وقريتك المعزولة وميدانك البائس هو قدرك.

ونسوا رائحة عرقك، وساروا إلى غيِّهم، دون إحساس بأى ذنب.

لا أستطيع اليوم أن أتذكر المآسى التى ارتكبوها، ولا يمكن شرح تفاصيل وجوههم الخائنة وهم يعاودون الكرَّة بفجع أحشائك وامتطائك كأنك مسبية بدون إحساس.

فى المرةِ الأخيرة التى شاهدتهم يركبونكِ ويطلقون النار فى فرجك، توقعتُ أن تصرخى أو تهتفى لوقف جنونهم، لكنكِ أبيتِ أن ينطق لسانك بالشكوى، وقلتِ كما قال مالك فى الخمر، ونظرتِ مرة أخرى إلى جثث أبنائك المدهوسين، وغطيت عورات بناتك الحرائر وتركتِ الميدان فى صمت.

الدموع تجف والأنهار تصرخ والسماء ترتعد والبحار تموج بأسرارك ، وأنت مازلت تقفين وراء المرآة تُسرِّحين شعرك فى انتظار عودتهم.

وقفتِ فوق شجرة عالية، ونظرتِ للجندى فوق الدبابة، والشرطى على المدرعة، والمذيع فى الفضائية، وأصحاب المصانع فى المكاتب المكيفة، والملتحين فى المساجد والكنائس، آملة انفجار أسوار القضبان فى وجوههم، لكنكِ، كما تعرفين، مشاعرهم تفحمَّت وأصبحت ميتة.

أصوات الرصاص وسيوف البلطجية تملأ الميدان وتظل شاهدة على المجزرة، ومع ذلك لملمتِ ملابسك المملوءة بالدم ورحلتِ مرة أخرى فى انتظار الفجر.

ظللتِ كعادتك بمنزلك الضيق، تجهزين وجبة العشاء للعمال العائدين من مصانعهم، والفلاحين المبتهجين بالشمس رغم المرض والفقر، وفى ليلة لم يكن يتوقعها أحد صرختِ فملأتِ القلوب والحناجر بالأمل.

ودارت الدورة من جديد، ولأنهم خانوكِ يا ملاكى، فلم يتمكن أنصارهم من المرور عليكِ اوالقسم أمامك مرة أخرى على الأمانة، لكنَّ المحرومين الذين يملأون الأزقَّة أخذوا بيديكِ، وساروا بكِ إلى نهاية الدنيا، كى يعيدوا نور الشمس الي الارض والسماء.

الورَّاق ٢٠١٣